في ظلال السيرة النبوية

الدكتور

أبو اليسر رشيد كُهُوسْ

الطبعة الأولى

1434 هـ/ 2013 م

دار الحكمة
طباعة - نشر - توزيع

جمهورية مصر العربية – القاهرة

زهراء مدينة نصر – المرحلة الثانية.

تليفون وفاكس: 24106748 – م: 01000135406

www.da□-elhekma.com

info@da□-elhekma.com

رقم الإيداع	2013/7766
الترقيم الدولي	978-977-728-009-9

من هدي القرآن:

يقول الله تبارك وتعالى:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ ... ٦ ﴾

(الأحزاب)

صدق الله العظيم

قبس من النبوة:

عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ:

"لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"

[رواه الشيخان]

إهداء
إلى ذي النورين
وصاحب الهجرتين
وزوج الابنتين
ثالث الخلفاء الراشدين
أمير المؤمنين
سيدنا عثمان بن عفان
رضي الله عنه

@

تقديم

الحمد لله محلّي محاسن السنة المحمدية بدرر أخبارها، ومجلّي ميامن السيرة النبوية عن غرر آثارها، ومؤيد من اقتبس نور هدايته من مشكاة أنوارها، ومُسهل طريق الجنة لمن اتبع منهاجها، واهتدى بضياء منارها، ومذلل سبيل الهداية لمن اقتفى سرائر سيْرها وسِيَرَ أسرارها، والمنقذ من الجهالة والعمى من اتعظ بدروسها وعض بالنواجذ على أحكامها وتأسى بأخلاقها وآدابها.

والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيد الخلق وحبيب الحق الرءوف بالمؤمنين الرحيم سيدنا وحبيبنا ومولانا محمد ﷺ، مسك الختام ولبنة التمام، الرفيع المقام الواجب التعظيم والاحترام، صلاة دائمة مستمرة على الدوام، على مر الليالي والأيام، وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين المكرمين وصحابته الكرام البررة أجمعين.

أما بعد؛ فإن لدراسة السيرة النبوية أهدافًا شتى ومقاصد متنوعة؛ فلا ندرسها دراسة سطحية بعيدة عن مغزاها، كالتمتع في التنقل بين أحداثها أو قصصها، أو التعرف على حقبة زمنية مضت، بل إن لدراستها مقاصد سامية، أهمها التأسي بسيدنا رسول الله ﷺ لكونه إسوتنا وقدوتنا، لقوله جل جلاه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب)، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ... ﴿٥٤﴾ ﴾ (النور)، وقوله جل شأنه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ... ﴿٨٠﴾ ﴾ (النساء)، وقوله تقدست كلماته: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ... ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران).

فكيف نتأسى به إن لم نعرف سيرته العطرة! وكيف نطيعه إن لم نعرف أوامره ونواهيه وهديه الشريف! وكيف نحبه إن لم نعرف شمائله وأخلاقه وخصاله وحياته...!

فهو عليه أفضل الصلوات وأعطر السلام الصورة التطبيقية للإسلام الحنيف، وبدون معرفته ﷺ لا نعرف كيف نطيع الله جل وعلا ونعبده.

فمن سيرته العطرة يقتبس الدعاة أساليب الدعوة وطرائقها وكيف يقفون في وجه الصعاب وكيف يقتحمون العقبات، وكيف يصبرون ويتحملون الأذى في الله.

ومنها يستقي المربون طرائق التزكية في التعامل مع النفوس البشرية، وما تحتاجها في كل مرحلة من مراحل التربية.

ومنها يستقي القادة منهاجهم في الحياة، وفي تسيير شئون البشر وتطبيق العدل بين الناس، وإعطاء كل ذي حق حقه.

ومنها يستقي العلماء ما يعينهم على فهم القرآن لكونها التفسير العملي للقرآن، وكيف يتعاملون مع النصوص ويحصلون فيها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون تدرج التشريع وأسباب النزول..

ومنها يستقي الزهاد والمذنبون والتجار والمعلمون وكل الأمة الآداب النبوية والأخلاق الفاضلة والشمائل الحميدة...

وكتبه أبو اليسر رشيد كهوس

المحور الأول

مدخل لدراسة السيرة النبوية العطرة

1- السيرة لغة واصطلاحا:

السيرة في اللغة: السنة والطريقة، قال الشاعر:

فلاَ تَغْضَبَنْ من سُنَّة أَنتَ سِرْتَها فأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَـــنْ يَسِيرُهَا

وتعني السيرة كذلك الهيئة والحالة. وفي التنزيل: ﴿...سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ (طه)، وسَيَّر سِيرة: حدَّث أحاديث الأوائل[1].

والسيرة في الاصطلاح:

عرفت بتعريف موافق لتعريف السنة أي: "ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خِلْقي أو خُلُقِي".

والتعريف الآخر: -وهو ينطبق على هذا العِلْم- "علم يعرف به أحوال النبي ﷺ منذ ولادته ونشأته إلى وفاته ﷺ". وبمعنى آخر:"هي السجل الدقيق الكامل لحياة سيدنا رسول الله ﷺ، من مولده يوم الاثنين 12 ربيع النبوي عام الفيل (570 ميلادية)، إلى التحاقه بالرفيق الأعلى يوم الاثنين 12 ربيع الأول 11 هجرية وفق 6 حزيران 632م". وبتعبير آخر: السيرة النبوية هي: "مجموع وقائع الحياة اليومية لخير البرية ﷺ، من قَبل ولادته (بما يشمل نسبه، وأجداده، وما جرى قبل ولادته من إرهاصات وأحداث ذات صلة بولادته)، وأثناء ولادته (ما جرى خلالها من معجزات) وبعدها (معجزاته وحفظ الله له في شبابه إلى تجارته وزواجه، وما عرف به من أخلاق قبل بعثته) إلى نزول الوحي عليه وبداية دعوته ومن آمن به ومن عاداه، وهجرته وغزواته وسراياه وبعوثه ورسائله إلى ملوك وأمراء عصره إلى وفاته ﷺ، مضافا إليها صفاته الخُلقية والخِلقية وخصائصه الشريفة".

(1) لسان العرب، لابن منظور، 4/ 389.

والسيرة النبوية العطرة قسم من الحديث النبوي باعتبارين اثنين:

أولهما: أننا ننسبها إلى رسول الله ﷺ وهو المشرع.

وآخرهما: روايتها بالأسانيد المتصلة إلى سيدنا رسول الله ﷺ، ولهذا أفرد لها علماء الحديث الشريف كتباً وأبواباً في مصنفاتهم في سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه وجهاده وشمائله ودلائل نبوته.

والسيرة النبوية جزء من التاريخ باعتبار أحداثها ووقائعها وقصصها.

أما المغازي؛ جمع مغزى، والمغزى يصلح أن يكون مصدرا، فقول: غزا يغزو غزوا ومغزى، ومغزاة. والغزو: السير إلى القتال مع العدو. الغزوة المرة، والغزاة: عمل سنة.

وتعني المغازي مَناقِبُ الغُزاةِ، والمَغْزَى والمَغْزاةُ والمغازي مواضِعُ الغَزْوِ وقد تكون الغَزْوَ نَفْسه[1]. ثم تطور استعمال كلمة "المغازي" وأطلقت على مناقب الغزاة وغزواتهم، ثم توسع استعمالها وأصبحت مرادفة للسيرة.

والجدير بالذكر أنه كان يطلق على المؤلفات التي تناولت حياة رسول الله ﷺ "المغازي" وقد عرفت هذه المؤلفات في وقت مبكر باسم "السيرة". وربما يكون الإمام محمد بن شهاب الزهري-رحمه الله- أول من استخدم كلمة "السيرة" مصطلحا لذلك. وتعد السيرة النبوية العطرة من أقدم أشكال التدوين التاريخي عند المسلمين، ويبدو أن عددا من المؤلفين في القرن الأول الهجري قد اهتم بالتأليف فيها، كما سنرى.

2- مقاصد دراسة السيرة النبوية:

إن لدراسة السيرة النبوية العطرة مقاصد نبيلة وحكما جليلة وأغراضا متعددة، وفوائد جمة، ومنافع عاجلة وآجلة؛ وأهمية كبيرة في حياة المسلمين. أجمل أهم هذه المقاصد التي يرجى تحققها ويُسعى إلى تحصيلها في الدُّنيا والآخرة في الآتي:

(1) لسان العرب لابن منظور، مادة: غزا.

1 - تحقيق الشَّهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ):

إن الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) هي الرُّكنُ الأعظمُ من أركان الإسلام، وأول عتبة للدخول في حصنه، والانتماء إلى أمته، فبدراسة السيرة النبوية العطرة يحقق المرء الشهادتين؛ يحقق الشطر الأول منها (لا إله إلا الله) بتوحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته وألوهيته وربوبيته وخالقيته، وعبادته وطاعته... وهذا ما تدور عليه أحداث السيرة النبوية جملة وتفصيلا، ويحقق الشطر الثاني منها (محمد رسول الله)، بتصديقه فيما أخبر به عن ربه من الوحي المنزل عليه، بإفراد الله بالوحدانية، وبالإيمان بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة، والملائكة، والموت والبعث والنشور، والجنة والنار، وغير ذلك من الأمور الغيبيَّة والحوادث المستقبلية التي أخبر بها..

ثم بالاستجابة لدعوته، وطاعته والتسليم التام له، والاحتكام إلى شرعه، وعدم التَّقدُّم بين يديه، والانقياد لأمره، وتطبيق ذلك في واقع الحياة بجميع نواحيها السِّياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والثقافية... واجتنابُ ما نهى عنه وزجر من الصغائر والكبائر والمحرمات.

2 - محبة سيدنا رسول الله ﷺ:

لا يخفى على أحد أن محبة سيدنا رسول الله ﷺ فرض في القرآن الكريم والحديث النبوي وإجماع علماء الأمة، فلازم ذلك معرفة سيرته ﷺ؛ فالتعرف على سيرته سبيل إلى محبته والتخلق بأخلاقه.

فمحبة رسول الله ﷺ هي العروة الوثقى والمنزلة العظمى، وقرة العيون ومنبع السرور، وسبب الانشراح والأفراح: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ ...٦﴾ [الأحزاب]: أي طاعتُه ﷺ أولى من طاعة أنفُسهم، واتباعه أولى من اتباع أهوائهم، ومحبته أولى من محبة أنفسهم فبالأحرى أموالهم وأولادهم. عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: "فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده"[1].

(1) صحيح الإمام البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول الله ﷺ من الإيمان، ح14.

وعن عبد الله بن هشام ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: "لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك" فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: الآن يا عمر"[1].

وعن أنس ﷺ: "أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الساعة فقال متى الساعة ؟ قال: "وماذا أعددت لها". قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: "أنت مع من أحببت". قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: "أنت مع من أحببت". قال أنس فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم وإن لم أعمل بمثل أعمالهم"[2].

إن محبته ﷺ مَجْلاة للقلوب من الصدأ والكسل، ومَدْعاة لتحريك الهمة للجد والعمل، وهي عماد الدين، وباب النصر والتمكين، لولاها لما استقام البناء على وجه الأرض لحظات، ولا عمتنا البركة من السماوات، إنها السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم، السبيل الموصل إلى جنات النعيم.

ولذلك فإن دراسة سيرته ﷺ تزيدنا حبا له وإيماننا به وشوقا إليه وتعلقا بشخصه الكريم العظيم.. كيف لا وهو الذي قال فيه الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]، وقال سبحانه وتعالى واصفاً نبيه وحبيبه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

3 - الوقوف على سنن الله في حياة رسول الله ﷺ:

إن من أهم مقاصد في دراسة السِّيرة النَّبويَّة وقصصها الوقوف على سنن الله تعالى في أمور رسول الله ﷺ اليومية، وأخذ الدروس منها والاعتبار بها، والسير على منهاجها وعدم تنكبها أو الحيدان عن سكتها...وصدق الله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ (يوسف).

(1) صحيح الإمام البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، ح6257.
(2) صحيح الإمام البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين رسول الله ﷺ، ح6257.

هذه السنن الإلهية التي نتوقف عليها أثناء دراستنا للسيرة ثابتة ومطردة يمكن أن تتكرر ظروفها في كل زمان ومكان، وحين تجرد من قيود الزمان والمكان لتجيب عن أسئلة العصر ومعضلاته ؛ إذ من خلالها نقدم العلاج الشامل لمجموعة من الأدواء التي أصابت الأمة المسلمة، بل من خلال السير على المنهاج المحمدي في التربية والدعوة والجهاد تحقق الأمة عزتها وتعود لها مكانتها، ويتحقق وعد الله عز وجل وموعود نبيه المصطفى ﷺ بانتشار نور الإسلام في العالمين.

فالسيرة النبوية تجسيدٌ حيٌّ للرِّسالة السماوية وبيانٌ عمليٌّ للقرآن الكريم وتنزيله على واقع التَّأسِّي في كلِّ مرحلة من المراحل التي مرَّت بها الرِّسالة النَّبويَّة.

وأهم السنن الإلهية في السيرة النبوية: سنة الله في التغيير (تغيير النفس والمجتمع)، وسنة الله فيمن تمسك بأحكام الإسلام وتعاليم القرآن في المظهر والمخبر، إضافة إلى رصد صفحات النصر والهزيمة في تاريخنا المجيد.. فضلا عن معرفة المنهاج النبوي في الدعوة إلى الله تعالى وبناء الأمة بعد بناء القلوب..

4 - التأسي برسول الله ﷺ والاقتداء به:

إن الاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ يقتضي معرفة سيرته العطرة وشمائله الكريمة وأخلاقه وأحواله ومعاملته... لذا صار من أوجب الواجبات الاطلاع على سيرته للاقتداء به عملا بقوله عز اسمه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب)، والاقتداء به ﷺ ترجمة حقيقة لمحبته ودليل على محبة العبد لله عز وجل لقوله جل ثناؤه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (آل عمران)، والاقتداء به ﷺ واتباعه وطاعته سبب الهداية والفوز والنجاة لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (النور).

وكيف يحب المرء رسول الله ﷺ وهو يجهل أوصافه وأحواله وأعماله وأقواله وتقريراته! وكيف يقتدي به وهو يعرف لا شيئا عن سيرته وهديه ومنهاجه! من هنا تأتي

أهمية شرح السيرة النبوية لتوضيح صفاته وأحواله وأخلاقه ﷺ، ليعرفها من جهل فيحب ويتبع.

ففي السيرة النبوية نماذج حية للقادة العظماء، والزهاد، والتجار الناجحين المخلصين الأتقياء، وفي السيرة أفضل النماذج للمربِّين والدعاة؛ فالداعية يقتدي برسول الله ﷺ في دعوته ويجد في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدعوة ومراحلها وكيفية التعامل مع الناس عامة، والمخطئين خاصة، فقد كان بهم جميعا رءوفًا رحيمًا، حريصًا على هدايتهم الحقِّ، حكيمًا في معالجة مشكلاتهم ومواقفهم المختلفة، حليمًا يَعْذُرُ الجاهلَ منهم حتَّى يتعلَّم. والوقائع الدَّالَّةُ على هذا كثيرةٌ جدًّا؛ منها قصَّةُ الأعرابيّ الذي جذب برداء رسول الله ﷺ حتى أثرت حاشية الرِّداء في صفحة عاتقه ﷺ طالبًا منه أن يعطيَه من مال الله؛ فكان ردُّ رسول الله ﷺ أن نظر إليه بكلِّ هدوء، ثم تبسَّم في وجهه وأمر له بعطاء[1].

ومنها قصَّةُ الشَّابِّ الذي جاء إلى رسول الله ﷺ -فيما رواه عنه أبو أمامة الباهلي- فقال: ائذن لي بالزِّنا. فأقبل القومُ عليه فَزَجروه وقالوا: مه، مه. فقال: "ادنه". فدنا منه قريبًا؛ قال: فجلس، قال: "أَفَتُحبُّه لأمك؟" قال: لا والله- جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبُّونه لأمَّهاتهم"، قال: "أفتحبُّه لأختك؟" قال: لا والله- جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم". قال: "أفتحبُّه لعمَّتك؟" قال: لا والله- جعلني الله فداءك. قال: "ولا الناس يحبونه لعماتهم". قال: "أفتحبه لخالتك؟" قال: لا والله- جعلني الله فداءك. قال: "ولا النَّاس يحبُّونه لخالاتهم". قال: فوضع يده عليه، وقال: "اللهم اغفر ذنبَه وطهِّر قلبَه وحصِّن فرجَه". فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[2].

فقد ناقش النَّبيُّ ﷺ هذا الشَّابَّ مناقشةً عقليَّةً منطقيَّةً أحسن التَّصَرُّفَ معه ولم يزجره وينهره رغم الجرأة وسوء الأدب في طلبه، وتدرَّجَ معه في الخطاب حتى اقتنع وتبيَّن له خطؤه في هذا الطَّلب. وقد تخلق رسول الله ﷺ بأخلاق القرآن وتأدب بآدابه: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم 3149 رقم 3149، ومسلم رقم 128.

(2) أخرجه الإمام أحمد في مسنده 5/ 256. قال شعيب الأرنؤوط : إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح.

سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل].

ومنها: قصَّةُ الأعرابيّ الذي بال في ناحية من المسجد النَّبويّ، فقام إليه الصحابة ﷺ فقال رسول الله ﷺ: "لا تزرموه"[1]؛ أي لا تقطعوا بوله. فكان تَصرُّفَه حكيمًا وبالمخطئ رحيما رفيقا.

ومنها: قصة معاوية بن الحَكَم السَّلميّ الذي تكلَّم في الصَّلاة وهو لا يعرف حكم ذلك، فعلَّمه رسولُ الله ﷺ من غير نهر له ولا تشديد عليه وقال له: "إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن"؛ ممَّا أَثَّرَ في نفس معاوية ﷺ فقال في روايته للقصَّة: فبأبي هو وأمي!! ما رأيتُ معلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تعليمًا منه؛ فوالله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني [2].

لقد كان حبيبنا رسول الله ﷺ أنموذجا قرآنيا رائعا لأخلاق السماء، وكانت الأمثلة الواقعة في حياته الشريفة ﷺ أعظم مثل وقدوة على أخلاقه العظيمة وحسن معاملته للمحسنين والمخطئين.

ومن سيرته العطرة يتعلم المربي أساليب التربية وتزكية النفس وتهذيبها، ويتعلم منها السياسي كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس النفاق ابن أبي ابن سلول الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر والنفاق والحقد والعداوة لرسول الله ﷺ، وكيف كان يدس الدسائس، وينشر الأكاذيب والإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ لتنفير الناس من دعوته والقضاء على الإسلام في مهده، وكيف عامله ﷺ، وصبر عليه وعلى عداواته، حتى ظهرت حقيقته البلجاء للناس فنبذوه جميعًا، ونفر منه حتى أقرب الناس له وكرهوه، والتفوا حول الحبيب المصطفى رسول رب العالمين ﷺ.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ح5679. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل البول وغيره، ح 284.

(2) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، ح537. مسند أحمد بن حنبل، 5/ 447-448.

ويجد القائد في سيرة رسول الله ﷺ منهاجا محكما في الحكم وتخطيطا واضحا في السلم والحرب، ودقة في التنفيذ وقيادة الأمة والجيش والقبائل، وحرصًا شديدا على تطبيق العدل وإقامة دعائم الشورى، ويجد فيها القائد المقاتل خلقا كاملا في معاملة الجند والأمراء والراعي والرعية والأسرى والسبايا..

ويجد فيها كل مسلم بغيته فيها؛ لكونها تشمل تفاصيل الحياة بدقائقها وكلياتها، منذ ولادة رسول الله ﷺ وحتى التحاقه بالرفيق الأعلى، مرورًا بمرحلة طفولته ﷺ وشبابه ودعوته وتربيته وجهاده وصبره وتحمله وتؤدته، وهجرته وبنائه للعمران والمجتمع والأمة، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه ﷺ كان زوجًا رحيما وأبًا عطوفا، وصديقا وافيا، وقائدًا مجاهدا، وحاكمًا عدلا، وسياسيًا محنكا، ومربيًا حكيما، وداعية وزاهدًا وقاضيًا وراعيا وأمينا... كيف لا يكون كذلك وهو مسدد بوحي السماء في كل حركاته وسكناته...!

وبهذا المنهاج القرآني والأخلاق القرآنية استطاع النبي العدنان ﷺ إخراج الأمَّة الأميَّة من ظلمات الجهل والتَّعَصُّب والشّتات والتَّفرُّق والطغيان إلى نور الإسلام وضياء الإيمان، فكانت بذلك خيرَ أمَّة أُخْرجت للنَّاس.

إنَّ النَّاظرَ في أحوال العرب قبيل الإسلام وما فيهم من جاهلية وخشونة وقسوة الطِّباع والنُّعرات القبلية والاستماتة في عبادة الأوثان والظلم والفواحش والطغيان وطاعة الجان والكهَّان وتقديس التَّقاليد وموروث الآباء والأجداد من غير تأمُّل ولا برهان، لَيَعْجَبُ؛ كيف تحوَّلت كل هذه الأخلاق السيئة والطباع القاسية الجافة الخشنة والعصبيات المنتنة والجاهلية الجهلاء وتبدَّلت في عقدين ونيف، فصارت أمَّةً ذات عمران أخوي ومجتمع أخلاقي ومبادئ سامية وأخلاق عالية...

لقد كانت أخلاق رسول الله ﷺ قرآنية، كيف لا وهو يمتثل أمر ربه: ﴿ **خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾** ﴾ [الأعراف]؛ قال عبدُ الله بنُ الزُّبير: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس؛ أي تحث على العفو والتسامح فيما يظهر من أخلاق

الناس[1]. وهو ﷺ القائل: "لا تنزع الرحمة إلا من شقي"[2]. وهو ﷺ القائل: "الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء"[3]... ومن لا رحمة في قلبه لا إيمان له، والمؤمن بمجرد وقوفه على هذه الآداب النبوية والأخلاق المحمدية يبذل كل جهده ليتأسى بنبيه ﷺ في أخلاقه عامة وفي رحمته بأمته والمذنبين منها والمخطئين خاصة.

ولقد أوتي المسلمون اليوم من هذا الباب، ولم يصبهم ما أصابهم إلا بسبب الإخلال بجانب الاقتداء برسول الله ﷺ، والأخذ بهديه، واتباع سنته، ومحبته وطاعته.

لقد اكتفى بعض المسلمين بقراءة سيرة رسول الله ﷺ العطرة في المناسبات والاحتفالات؛ دون الوقوف معها، والاهتداء بهديها وتطبيقها في الحياة....

في حين اكتفى آخرون بالعكوف على جوانب جزئية منها، دون الاهتمام بأخلاقه ﷺ وآدابه وحسن معاملته للناس -مسلمين وغير مسلمين-، ورفقه وسماحته وعفوه وعدله وتواضعه وزهده ورحمته بأمته، وتفاؤله واستبشاره، وحبه الخير للناس... فلم يكن فحاشا ولا طعانا ولا سبابا، ولا متنطعا، ولا مغرورا متكبرا، ولا خائضا في أعراض الناس -ولو كانوا مذنبين- ولا متتبعا لعثراتهم، ولا يشير بإصبع الاتهام إلى أحد..

وكل هذا راجع إما لجهلهم بأن الاتباع والتأسي والاقتداء به في أخلاقه وآدابه وعباداته ومعاملته وحسن معاشرته من لوازم محبته، وإما لعدم إدراكهم مواضع الاقتداء من سيرته ﷺ.

5- السيرة النبوية تفسير تطبيقي للقرآن الكريم:

ليس الغرض من دراسة السيرة النبوية والبحث فيها مجرد سرد الوقائع التاريخية، والوقوف على ما طرف من قصصها، وليس شأنها شأن الاطلاع على سيرة ملك من الملوك

(1) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الأعراف، ح4367.
(2) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4942، قال الألباني: حديث حسن. مسند أحمد بن حنبل، 2/ 539.
(3) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب الرحمة، ح4941، قال الألباني: حديث صحيح. سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب: رحمة المسلمين، ح1924.

أو أمير من الأمراء في الحقب التاريخية السالفة. وإنما شأن السيرة العطرة المعطرة أعظم وأجل من أن تحصر في زاوية ضيقة ثم ينتهي الأمر، فالغرض منها وشأنها أن يتصور كل مسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ، حتى يدرك أن لا قوام لهذه الحياة ولا مساك لها إلا بالتلبس بها؛ إذ هي أساس الحياة السعيدة، والعيشة الهنية في الأولى والآخرة، وهي طريق الرقي في مدارج السمو والكمال.

وإن اختزال السيرة النبوية في حادثة تاريخية مضت، أو في حقبة زمنية غابرة، إخراج لها من مد الحياة، وإيقاف لمفعولها وعطائها، وعزل لها عن الكثير من ضروريات الحياة.

إن السيرة النبوية هي التجسيد الحي لأحكام القرآن ومبادئه، وإن سيدنا رسول اللهﷺ هو أول مبلغ عن ربه، وأعظم من فهم ما أنزل إليه من ربه وفسره؛ نقرأ تفسيره في أعماله وأقواله وتقريراته، ونفهم القرآن الكريم من خلال حياته العملية والدعوية كلها والجهادية والتربوية، فكانت حياته كلها ترجمة فعلية حية وتفسيرا عمليا للقرآن الكريم، فكان صلوات الله عليه وسلامه كما قالت عنه الصِّديقة بنت الصِّدِّيق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"[1].

ففي السيرة النبوية بيان لكثير من معاني القرآن الكريم؛ كتلك الآيات التي تحدثت عن الغزوات النبوية، كسورة آل عمران والأنفال والتوبة والأحزاب والفتح والحشر...، كما أن في دراسة السيرة النبوية بيان لكثير من أسباب النزول التي تساعدنا على فهم النص القرآني؛ كتلك الآيات التي تنزلت عقب كل حدث أو سؤال. وحتى تفهم هذه الآيات القرآنية جيدا لا بد من دراسة السيرة النبوية لكونها التفسير العملي للقرآن.. قال تعالى: ﴿...وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ...﴿٤٤﴾﴾ [النحل].

كما تحدد لنا السيرة النبوية أسباب ورود الكثير من أحاديثه ﷺ الشريفة، وتاريخ أقوال سيدنا رسول الله ﷺ وأفعاله وتقريراته التي كانت عقب أحداث متنوعة كالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وغزواته وسراياه... وبهذا يمكننا الجمع بين جملة من أحاديثه التي

(1) الأدب المفرد للإمام البخاري، كتاب حسن الخلق، باب من دعا الله أن يحسن خلقه.

يبدو لنا أن فيها نوعا من التناقض أو التعارض، أو نرجح بعضها على بعض، أو يكون ذلك وفق سنة الله في التدرج في التشريع، مراعاة لأحوال الناس واستعدادهم.

6 - السيرة النبوية جزء من التاريخ:

التاريخ ذاكرة الأمم ومن لا ذاكرة له فلا حاضر له ولا مستقبل، والتاريخ يعيد نفسه، ومشكلات الأمة متكررة ولا تعالج إلا بما عولجت به زمن النبوة والخلافة الراشدة (لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أوله).

هذا فضلا عن أن لدراسة السيرة النبوية أهمية خاصة في حياة الأمة المسلمة؛ لأنها تعينها على فهم طبيعة الرسالة القرآنية، وتحقيقها على أرض الواقع، فالإسلام جمع بين النظرية والتطبيق، وسيرة رسول الله ﷺ خير شاهد على إمكانية تطبيق النصوص تطبيقا واقعيا... أما النظريات فقد حدثت بينها وبين التطبيق العملي فجوة بل يستحيل تطبيقها على أرض الواقع إلا الإسلام.

7 - لتتمسك الأمة بالسيرة النبوية وتصيغ حياتها على مبادئها:

إن دراسة سيرة سيدنا رسول الله ﷺ في عصرنا هذا "ضرورة كضرورة المنقذ بالنسبة للغريق الموشك على الهلاك، يملي تلك الضرورة الواقع المتردي البئيس الذي تعيشه الأمة العربية والإسلامية والإنسانية جمعاء، تمد أيديها لمن ينتشلها من الخطوب والأزمات، ولا من منقذ.

ما أشبه حياتنا في بعض جوانبها بحياة ما قبل البعثة: القوي يأكل الضعيف ويستعبده، المرأة تشتغل في سوق النخاسة المعاصرة... والتعامل بالربا فاش في معاملات الأفراد والبنوك والشركات وبين الدول...

فما أحوجنا إلى أن نفيء إلى ظلال الإسلام والاحتماء بشريعة ربنا، وتطبيقها في حياتنا، والامتثال لتوجيهات رسولنا ﷺ، إن أردنا العز والظفر والكرامة"[1].

(1) "السيرة النبوية فوائدها وأشهر مصادرها"، عبد العزيز فارح، مجلة السنة النبوية، العدد الثالث، أبريل 2003، ص91-92.

فأمتنا المسلمة اليوم في أمس الحاجة لدراسة السيرة النبوية والنهل من ينابيعها، والسير على منهاجها، والتمسك بمبادئها الرفيعة، وجعلها منطلقا لتربية الفرد وإصلاح المجتمع.

فللسيرة النبوية، وأخلاق رسول الله ﷺ، وجهاده، "ومعالم نبوته، ومعجزاته، وفضائله الدور الأول في بناء الإنسان وتوجيهه للخير، وربطه برب الأرض والسماء، وتبصيره بالمفاهيم والحقائق العليا بعد شرود وضياع، وانحراف واعوجاج"[1].

ومن فوائدها إحياء ذكرى رسول الله ﷺ في القلوب، ومعرفة أحواله وأفعاله وأخلاقه وصفاته، وكيف عالج رسول الله ﷺ واقع أمته، وغيَّر المجتمع من جاهلية إلى إسلام، ومن مجتمع العصبية والحمية والتنازع إلى مجتمع المحبة والأخوة والتعاون.

وبالتعرف على سيرته ﷺ الطاهرة ودراستها يزداد المرء إيمانا ويقينا بصدقه لدلائل نبوته ﷺ ومعجزاته، ويشتاق إلى حبيب الله المصطفى ﷺ بوقوفه على المواقف الخالدة في سيرته العطرة، ويتعلق بشخصه الكريم بدراسته لشمائله الكريمة وخصاله الحميدة...

- تعلُّمُ السيرة النبوية ودراستها عبادة وقُربة:

إن دراسة سيرة سيدنا رسول الله ﷺ العطرة وذكره والصلاة عليه عبادة وقربة: قال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأحزاب]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا"[2].

وعليه فدراسة السيرة العطرة ومعرفتها والوقوف عليها أوجب من الواجبات، يقول الإمام عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ) -رحمه الله-: "وهذا الفن مما ينبغي الاعتناء به، والاعتبار بأمره، والتهيؤ له، كما رواه محمد بن عمر الواقدي عن

(1) إتحاف أهل الوفا بتهذيب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ للإمام القاضي عياض اليحصبي، تهذيب: الشيخ عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، انظر مقدمة المهذب، بيروت، ط1/ 1421-2000، ص7.

(2) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ، (ح408).

عبد الله بن عمر بن علي عن أبيه سمعت علي بن الحسين يقول: كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن. قال الواقدي: وسمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: في علم المغازي علم الآخرة والدنيا"[1].

وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص-رحمهم الله- قال: "كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ ويعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها"[2].

قال الإمام السهيلي -رحمه الله-: "فهذه جملة تشرئب إلى معرفتها أنفس الطالبين، وترتاح بالمذاكرة بها قلوب المتأدبين، وكل ما كان من باب المعرفة بنبينا عليه السلام ومتصلا بأخبار سيرته مما يونق الأسماع ويهز بأرواح المحبة الطباع والحمد لله على ما علم من ذلك"[3].

3- مميزات السيرة النبوية:

1- إنها سيرة رسول اصطفاه الله تعالى لتبليغ رسالته ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ... ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]، وأرسله إلى الناس كافة ليخرجهم من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإسلام وهدي الرحمن، وينقذهم من الشقاء والضلال والظلم والفساد إلى السعادة والهداية والعدل والصلاح وجعله إسوة وقدوة للناس كافة، ودعاهم إلى الإيمان به ومحبته وطاعته واتباع سنته وتصديقه، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأحزاب].

فسيرته العطرة إسوة وقدوة لكل الناس في كل مكان وعبر العصور، لكونها أكمل سيرة وأصح سيرة لنبي مرسل. عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً"[4].

---

(1) البداية والنهاية 3/ 242، وانظر الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، 2/ 195.
(2) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع 2/ 195.
(3) الروض الأنف، للسهيلي، 3/ 136.
(4) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب قول النبي جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، صحيح مسلم، كتاب المساجد.

2- أنها أصح سيرة لنبي مرسل من لدن رب العالمين؛ فسيرة الأنبياء والرسل السابقين كلها تعرضت للتحريف -إلا بعض ما وصلنا عن طريق القرآن والسنة- أما سيرة سيدنا رسول الله ﷺ فقد وصلت إلينا مجملة في القرآن الكريم ومفصلة في الأحاديث الصحيحة والمتواترة، فلم تتعرض السيرة النبوية للتحريف، قال الإمام ابن حزم الأندلسي في ميزة اتصال السند عند أمة الإسلام من أصغر راو إلى سيد الوجود ﷺ: "ما نقله الثقة عن الثقة كذلك حتى يبلغ إلى النبي ﷺ، يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والمكان، على أن أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقول نقل الكواف إما إلى رسول الله ﷺ من طرق جماعة من الصحابة ﷺ، وإما إلى الصاحب وإما إلى التابع وإما إلى إمام أخذ عن التابع يعرف ذلك من كان من أهل المعرفة بهذا الشأن والحمد لله رب العالمين، وهذا نقل خص الله تعالى به المسلمين دون سائر أهل الملل كلها، وبناه عندهم غضا جديدا على قديم الدهور. إلا أن اليهود لا يمكنهم أن يبلغوا في ذلك إلى صاحب نبي أصلاً، ولا إلى تابع له، وأعلى من يقف عنده النصارى شمعون ثم بولس ثم أساقفهم عصراً عصراً، هذا أمر لا يقدر أحد منهم على إنكاره ولا إنكار شيء منه، إلا أن يدعي أحد منهم كذباً عند من يطمع في تجويزه عليه ممن يظن به جهلاً بما عنده فقط، وأما إذا قررهم على ذلك من يدرون أنه يعرف كتبهم فلا سبيل لهم إلى إنكاره أصلاً.. أما اليهود فلا يقربون في سندهم من موسى عليه السلام كقربنا فيه من محمد ﷺ، بل يقفون ولا بد حيث بينهم وبين موسى عليه السلام أزيد من ثلاثين عصرا في أزيد من ألف وخمسمائة عام وإنما يبلغون بالنقل إلى هلال وشماني وشمعون ومرعقيبا وأمثالهم"[1].

3- الشمولية والوضوح والكمال: تمتاز السيرة النبوية العطرة بالشمولية؛ فهي شاملة لجميع نواحي الحياة: التربوية والدعوية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية...

كما تتميز بالوضوح؛ فسيرته ﷺ واضحة وضوح الشمس في عليائها؛ عرفنا حياته ﷺ منذ زواج أبيه عبد الله بأمه آمنة بنت وهب -رحمهما الله- إلى ولادته ﷺ إلى زواجه بأم المؤمنين خديجة بنت خويلد سلام الله عليها، ثم إلى نزول الوحي عليه، وما مر به ﷺ قبل

(1) الفصل في الملل والأهواء والنحل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، 2/ 68-69.

ذلك من الخلوة وحفظ الله تعالى له قبل البعثة، ثم من نشر دعوته وجهاده وهجرته وبناء الدولة الإسلامية والمجتمع المسلم إلى غزواته وسراياه وكتبه إلى الأمراء والملوك حتى وفاته ﷺ.

هذا فضلا عن معرفة شمائله الشريفة وخصاله الحميدة ومعجزاته الباهرة وصفاته الخُلقية والسلوكية، وصفاته الخِلقية: شكله، وطوله، ولون بشرته، وطول أنفه، ومشيته، وشعره، وصدره، وشكل فمه، وأسنانه، وطريقة أكله وشربه ونومه، ومكان دفنه وروضته... وكل تفاصيل حياته ﷺ وردت في الكتاب والسنة والحديث النبوي وكتب السير والمغازي والشمائل والدلائل والخصائص...

عرفنا حتى علاقته الزوجية؛ فالعظماء لا يريدون لعلاقاتهم الزوجية داخل البيت أن تفشى بل تعتبر حياتهم الخاصة سراً من الأسرار يعاقب على إفشائها، وكل الناس كذلك لا يرضون بإفشاء أسرار حياتهم الزوجية، ما عدا رسول الله ﷺ فقد سمح لأزواجه أن ينقلن عنه علاقته معهن داخل بيته ومعاملته لهن وحسن عشرته لهن؛ فبلغن عنه كل ما رأوه منه، حتى إن إحدى زوجاته لتبلغ عنه ما كان تحت اللحاف فيما بينه وبينها، وعن غسلها معه من الجنابة... حتى مداعبته لهن... يقول الإمام ابن قيم الجوزية -رحمه الله- يحكي لنا سيرة الحبيب المصطفى ﷺ مع أزواجه -رضي الله عنهن-: "وكانت سيرته ﷺ مع أزواجه حسن المعاشرة، وحسن الخلق. وكان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار يلعبن معها. وكان إذا هويت شيئا لا محذور فيه تابعها عليه، وكانت إذا شربت من الإناء أخذه، فوضع فمه موضع فمها وشرب، وكان إذا لعقت عرقا -وهو العظم الذي عليه لحم- أخذه فوضع فمه في موضع فمها، وكان يتكئ في حجرها، ويقرأ القرآن ورأسه في حجرها، وربما كانت حائضا، وكان يأمرها وهي حائض فتتزر ثم يباشرها، وكان يقبلها وهو صائم، وكان من لطفه وحسن خلقه مع أهله أنه يمكنها من اللعب، ويريها الحبشة وهم يلعبون في مسجده، وهي متكئة على منكبيه تنظر، وسابقها في السفر على الأقدام مرتين، وتدافعا في خروجهما من المنزل مرة..."[1].

(1) زاد المعاد في هدي خير العباد، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، 1: 57-58.

كما تمتاز السيرة بالكمال؛ فلا عيب فيها ولا نقصان ولا ضعف ولا خلل، حتى ألد أعدائه لم يستطيعوا أن يتهموه في أخلاقه أو عرضه... عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ صَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي: "يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ". لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولاً لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: "أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ". قَالُوا: **نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلاَّ صِدْقًا**"[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: "أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالا قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك إنك منكر له، أو إنك كاره له. قال: و ماذا أقول؟ فو الله ما فيكم من رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وأن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وأنه ليعلو وما يعلى، وأنه ليحطم فاتحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ (المدثر)"[2].

فلا خلل ولا نقص ولا عيب في سيرته العطرة، وأخلاقه الحسنة..كمال في كمال، وبهاء وجمال...

4- تعتبر أقواله ﷺ وأفعاله وتقريراته المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم والسيرة النبوية العطرة جزء من ذلك، لقوله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ...﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]، وقوله جلت عظمته: قوله عزّ من قائل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا

(1) صحيح الإمام البخاري، كتاب التفسير، باب (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ واخفض جناحك للمؤمنين).

(2) قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه. قال: الذهبي في التلخيص: على شرط البخاري. المستدرك على الصحيحين للحاكم.

﴿مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]. وبدون السيرة النبوية لا نستطيع أن نفهم القرآن الكريم.

5- توفر لسيرة رسول الله ﷺ من الحفظ والصون ما لم يتهيأ لبشر من قبله ولن يتوفر لكائن من كان من بعده ﷺ؛ فقد حفظها لنا القرآن الكريم في آيات قرآنية كثيرة، كما اعتنى علماء الأمة بتدوين رواياتها وحفظها منذ عهد النبوة مما يضفي عليها التكامل في التسجيل والثقة في الرواية والصدق والأمانة في النقل، هذا فضلا عن تمحيص أخبارها كما محص الحديث والتثبت من الرواة ومعرفة الصحيح منها والحسن والضعيف والمتروك؛ فأصبحت أصح سيرة نقلت إلينا عن رسول أو نبي أو عظيم.

كما اشتهر جملة من أصحاب رسول الله ﷺ بالاهتمام بالسيرة النبوية؛ كعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والبراء بن عازب وغيرهم ﷺ.

فما ترك كتاب السيرة النبوية عبر التاريخ باباً من أبوابها إلا صنفوا فيه مصنفا مستقلاً، شمل ذلك تفاصيلها وجزئياتها حتى أصبح المسلم عند قراءته لسيرة سيدنا رسول الله ﷺ كأنه يراه ويعايشه تماماً لوضوحها وشمولها.

أما سيرة الكثير من العظماء والملوك والفلاسفة والشعراء، فقد طواها التاريخ طيا ولم يبق منها شيء إلا بعض أسمائهم وأخبارهم...

بل أصبحت سيرة الكثير من العظماء أضحوكة للبشر على مر التاريخ، يسخر منهم الصغير والكبير، والعالم والجاهل؛ فأين نمرود الطاغية الجبار الذي قال لإبراهيم: ﴿... أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ...﴿٢٥٨﴾﴾؟! (البقرة) وأين فرعون الذي قال: ﴿...أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات)، وقال: ﴿... مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ...﴿٣٨﴾﴾؟! (القصص).

لقد افتضح أمر كل هؤلاء بعد إهلاكهم، وأصبحوا محل السخرية على مدار الزمان.

6- اعتماد رواتها على الرواية المسندة المتصلة الحلقات إلى سيدنا رسول الله ﷺ عن طريق الأئمة الثقات الأثبات الذين سمعوا من رسول الله ﷺ وصحبوه وعايشوا أحداث

سيرته، ثم التابعين الذين صحبوا من صحب رسول الله ﷺ وسمع منه وشاهد تقريراته وأفعاله... وهكذا تواصلت الحلقات وارتبط بعضها ببعض إلى يومنا هذا.

فتماسكت حلقات الرواة عن رسول الله ﷺ راو عن راو عبر العصور؛ وقد امتد عمر بعض أصحاب رسول الله من الهجرة إلى بداية القرن الثاني الهجري؛ فقد توفي أنس بن مالك ﷺ سنة 93هـ، وتوفي عبد الله بن بسر المازني ﷺ 96هـ، ومات محمود بن الربيع ﷺ 99هـ، أما أبو الطفيل عامر بن واثلة ﷺ فقد توفي سنة 101هـ.

7- تعتبر السيرة النبوية العطرة، منهاج التيسير ورفع الحرج عن الأمة، ونبذ التطرف والتعصب والغلو والتنطع. فقد كان سيدنا رسول الله ﷺ لا يُخَيَّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا؛ لكونه أسوة وقدوة لأمته عامة وللدعاة خاصة ليحملوا الناس على اليُسر، ولا يشق عليهم، فالشخص في خاصة نفسه يحملها على الورع والاحتياط، أمَّا إلزام الناس بذلك فلا. ولذلك قال سيد الوجود ﷺ: "إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا"[1]. وقال ﷺ: "أَلاَ مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَو انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]. فللنظر كيف يختطف الرهائن الأجانب في بلاد المسلمين وكيف يعاملون بوحشية وبربرية وقسوة كل هذا تحت غطاء الشريعة والإسلام! والإسلام من هذا السلوك براء!

8-تعتبر السيرة النبوية التفسير التطبيقي للقرآن الكريم، لقول أم المؤمنين عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: «كان خلقه القرآن ..."[3]. قال الحافظُ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت774هـ)-رحمه الله-: "ومعنى هذا أنَّه ﷺ مهما أمره به القرآن امتثله ومهما نهاه عنه تركه؛ هذا مع ما جَبَلَه اللهُ عليه من الأخلاق الجبلِّيَّة الأصليَّة العظيمة التي لم يكن أحد من البشر ولا يكون على أجمل منها،

(1) المستدرك على الصحيحين للحاكم، 2/ 329. مسند أحمد بن حنبل، 4/ 90. السنن الكبرى للبيهقي، 8/ 164.

(2) سنن أبي داود، كتاب الخراج، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات، ح3052. قال الألباني: حديث صحيح.

(3) الأدب المفرد، الإمام البخاري، حسن الخلق، باب من دعا الله أن يحسن خلق، ح308.

وشرع له الدِّينُ العظيم الذي لم يشرِّعه لأحد قبله؛ فكان فيه من الحياء والكرم والشَّجاعة والحلم والصَّفح والرَّحمة وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يُحَدُّ ولا يمكن وَصْفُه"[1].

4- أنواع التأليف في السيرة النبوية:

لقد شمل التأليف في السيرة النبوية العطرة المجالات الآتية:

أ- كتب السيرة الشاملة: السيرة النبوية للإمام أبي بكر محمد بن إسحاق (ت151هـ)- رحمه الله- حققها: الشيخ محمد حميد الله، ونشرها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب. ونسخة أخرى بتحقيق: الأستاذ أحمد فريد المزيدي وأضاف إليها ما تبقى من أحداث السيرة النبوية من سيرة ابن هشام وطبع في مجلد واحد نشرته دار الكتب العلمية ببيروت لبنان، 1424هـ.

السيرة النبوية، المعروفة بسيرة ابن هشام وهي تهذيب لسيرة ابن إسحاق، للإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري (ت218هـ)-رحمه الله-.

ب- كتب المغازي: المغازي للإمام أبي محمد موسى بن عقبة)ت141هـ(-رحمه الله-، جمع ودراسة وتخريج: محمد باقشيش أبو مالك، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن زهر أغادير المغرب، مطبعة المعارف الجديدة-الرباط، ط1994م. والمغازي للإمام محمد بن عمر الواقدي (ت207)-رحمه الله-، تحقيق: مارسدن جونس، دار عالم الكتب.

ت- الدلائل: الدَّلائلُ هي المعجزات والبراهين الدَّالَّةُ على صدق سيدنا محمد ﷺ في النُّبُوَّة والرِّسالة؛ ودلائلُ النُّبُوَّة منها المعنويُّ، ومنها الحسِّيُّ الخارق للعادة، ويسمى معجزة ودليلاً وبرهانًا وآية من الآيات.

والدَّلائلُ التي يؤيِّدُ اللهُ بها أنبياءه ورسلَه ويجريها على أيديهم؛ هي محضُ فضل من الله تعالى؛ لتكون تأييدًا وتصديقًا لهم وبيانًا لعلو مقامهم ومنزلتهم عنده، ومن سنن الله تعالى

(1) البداية والنهاية، 8/ 456.

أنَّه لا يؤيِّد الكذَّابَ عليه، وقد باء بالخزي والخذلان كلُّ من ادَّعى النُّبوَّةَ من الكذَّابين؛ مثل: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذَّاب، والمختار بن أبي عبيد، وغيرهم.

ودلائلُ نبوَّة رسول الله محمد ﷺ كثيرةٌ جدًّا، وقد ذكرَ الإمامُ البيهقيُّ -رحمه الله- في "دلائل النبوة" أنَّها تزيد على ألف دليل، كما ذكر الإمام النَّوويُّ -رحمه الله- في مقدِّمة شرحه لصحيح الإمام مسلم أنَّها تزيد على ألف ومائتي دليل.

ومن دلائل النبوة ما وقع قبلَ بعثته المباركة؛ مثل بشارات الأنبياء به في الكتب السَّالفة، وأخبارُ الكُهَّان والرهبان والجان، وتسليم حجر عليه بالنُّبُوَّة في مكَّة، وشق صدره وهو في بادية بني سعد.

ومنها ما وقع على يديه ﷺ بعد البعثة حتى التحاقه بالرفيق الأعلى، ومن أعظم ذلك نزولُ القرآن العظيم على النبي الأميّ، ومثل نزول المطر بعد دعائه مباشرةً، ونبع الماء بين أصابعه، ودعائه في الماء القليل فيكون كثيرًا، وحنين الجذع عندما ترك الاستناد إليه، وانقياد الأشجار والبهائم لأمره ﷺ، وشهادة الذئب ببعثته ونبوته، وانشقاق القمر نصفين عندما طلبت قريش آيةً حتى رأوا ذلك، وتحقُّق وعد الله له بهزيمة المشركين في بدر.

ومنها ما لم يقع حتَّى الآن، ولكنَّه أخبر بوقوعه مستقبَلاً: ومن ذلك أشراطُ السَّاعة التي أخبر بوقوعها ولم تقع حتى الآن.

ومن أقدم من كتب فيها: كتاب "دلائل النبوة" للإمام أبي بكر جعفر بن محمد بن الحسن الفريابي، (ت301 هـ)، بتحقيق: عامر حسن صبري، مكة المكرمة: دار حراء، ط 1/ 1406هـ-1986م.

ومن أشهرها كتاب: "دلائل النبوة" للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (ت458هـ)، تحقيق: عبد المعطي قلعجي.

ث- كتب الشمائل: وهي التي تتناول أخلاق النبي ﷺ وآدابه وصفاته الخُلقية والخِلقية، وأقدم من ألف فيها أبو البختري وهب بن وهب الأسدي (ت200هـ) في مؤلفه

"صفة النبي ﷺ"، وتلاه عدد كبير من المصنفات في المجال نفسه بعناوين مختلفة ومتقاربة، ومن أشهرها كتاب: "الشمائل المحمدية والخصال المصطفوية" للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت279هـ)-رحمه الله-.

ج- الخصائص: "الخصائص النبوية الكبرى" للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت911هـ)، وقد هذبها محدث العصر الشيخ أبو الفتوح عبد الله التليدي. "غاية السول في خصائص الرسول ﷺ"، للإمام أبي حفص عمر بن علي الأنصاري الشهير بابن المُلَقِّن (ت804هـ). "الباهر في حكم النبي بالباطن والظاهر"، للإمام السيوطي، تحقيق: محمد خيري قيرباش أوغلو، دار السلام القاهرة.

ح- البشارات: مثل: "خير البِشْر بخير البَشَر ﷺ"، للإمام حجة الدين أبي عبد الله محمد بن محمد بن ظفر الصّقلي (ت567هـ)، ضبط وتحقيق: لطيفة شوكري، وخديجة أبوري، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء-المغرب، ط1، 1429هـ-2001م.

خ- الموسوعات في السيرة: "سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد" للعلامة محمد بن يوسف الدمشقي الشامي (ت942هـ) انتخبها من 300 كتاب.

وكتاب "الجامع في السيرة النبوية" تأليف الأستاذة سميرة الزايد، دمشق 1994.

د- جزئيات السيرة: وكما اهتم العلماء في التأليف في السيرة جملة، فإن هناك من اهتم بالكتابة في جزئيات السيرة مثل: "تركة النبي ﷺ والسبل التي وجهها فيها" للعلامة حماد بن إسحاق بن إسماعيل (ت267هـ) بتحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، الطبعة الأولى (عام1404هـ)، و"المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي" للشيخ محمد بن علي بن أحمد بن حديدة الأنصاري (ت783هـ)-رحمه الله-، ط1/ 1396هـ، وكتاب "الفخر المتوالي فيمن انتسب للنبي ﷺ من الخدم والموالي" للإمام محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت902هـ) -رحمه الله-، بتحقيق: مشهور حسن، الطبعة الأولى (عام1407هـ)، و"التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة" للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي-رحمه الله-، بتحقيق: حسنين محمد مخلوف، و"سداد الدين

في إثبات الدرجات والنجاة للوالدين". للعلامة السيد محمد البرزنجي المدني الشافعي (ت1103هـ) -رحمه الله-.

ذ- فقه السيرة: "زاد المعاد في هدي خير العباد" للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية (ت751هـ)-رحمه الله-. و"فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة"، للشيخ محمد سعيد رمضان البوطي-رحمه الله-، دار السلام- القاهرة، دار الفكر المعاصر-بيروت، دار الفكر-دمشق، ط1، 1412هـ/ 1991م.

س- مختصرات في السيرة: "خلاصة سير سيد البشر"، للإمام محب الدين أبي جعفر أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبي بكر الطبري (ت694هـ)-رحمه الله-. و"مختصر السيرة النبوية لابن سيد الناس"، للإمام محمد بن سعيد الشوسي المرغتي المراكشي (ت 1089هـ)- رحمه الله-، و"أوجز السير لخير البشر" للإمام أحمد بن فارس (ت 395 هـ)-رحمه الله-.

ش- النظم في السيرة: نظم السيرة للحافظ عبد الرحيم العراقي (ت806هـ)-رحمه الله-، وقد طبع الكتاب مع شرحه "العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية" لعبد الرءوف المناوي (ت1031هـ).

ص-المواليد: "مولد النبي ﷺ" عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت597هـ)-رحمه الله-. و"الفضل المنيف في المولد الشريف"، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي-رحمه الله-، تحقيق: محمد عايش. و"حسن المقصد في عمل المولد"، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي-رحمه الله-، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا. و"عرف التعريف بالمولد الشريف": للإمام الحافظ المقرئ أبي الخير محمد بن محمد ابن الجزري (ت833هـ) -رحمه الله-.

ض-السنن الإلهية في السيرة: كتاب "السنن الإلهية في السيرة النبوية"، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان. و"نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ"، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الحكمة بالقاهرة جمهورية مصر العربية.

هذا إضافة إلى إدراج السيرة النبوية ضمن أبواب كتب الحديث النبوي الشريف وكتب التاريخ العام، وكتب التراجم والطبقات، وكتب الأدب والفقه.

5- مصادر السيرة النبوية:

تعتمد مصادر السيرة النبوية العطرة على مصادر متنوعة منها ما هو تكميلي ومنها ما هو أصلي؛

فمن المصادر الأصلية: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكتب السير والمغازي، وكتب الدلائل، والشمائل، والخصائص، وكتب التاريخ العام.

ومن المصادر التكميلية: كتب الفقه، والأدب، ودواوين الشعر، وكتب الأنساب، وتراجم الرجال، وكتب البلدان (الجغرافيا)...

أ- المصادر الأصلية:

1- القرآن الكريم: إن المصدر الأساس للسيرة النبوية العطرة هو القرآن الكريم، لأنه مصدر قطعي الثبوت..

وكتاب الله تعالى يزخر بكثير من الآيات القرآنية التي تناولت السيرة النبوية وأحداثها؛ فقد جاء فيه الكثير من التفاصيل عن سيرة رسول الله ﷺ، فقد ذكر الله تعالى حال رسول الله ﷺ منذ صغره كما في سورة الضحى، وذكر حاله بعد بدء نزول الوحي عليه حين ارتجف قلبه وذهب إلى زوجه أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها كما في سورة المزمل والمدثر، وذكر قصة زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها بعد طلاقها من زوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه حِب رسول الله ﷺ كما في سورة الأحزاب، وذكر تكذيب كفار قريش للرسالة المحمدية في الكثير من آيات القرآن كسورة القمر والقلم والانشقاق وغيرها، وذكر ابتلاءه للمستضعفين بمكة، وكما اشتملت الكثير من سور القرآن الكريم على كثير من تفاصيل السيرة النبوية العطرة، كسورة النور التي تناولت حادث الإفك، وسورة الأحزاب -مثلا- التي تضمنت تعامله مع أزواجه وأصحابه كما تضمنت تفاصيل كثيرة عن غزوة الأحزاب،

إضافة لسورة آل عمران التي تناولت تفاصيل غزوة أحد، وسورة الأنفال التي تحدثت عن أحداث غزوة بدر الكبرى، وسورة التوبة التي تناولت أحداث الهجرة وغزوة حنين وتبوك ومواقف الناس والمنافقين منها، وسورة الحشر التي تحدثت عن مواجهة النبي ﷺ ليهود بني النضير، وسورة الفتح التي تحدثت عن صلح الحديبية، وسورة الإسراء التي تحدثت عن حادثة الإسراء وسورة القمر التي تحدثت عن المعراج... وغيرها من السور...

هذا إضافة إلى ذكر مجموعة من التشريعات التي عمل بمقتضاها سيد الوجود صلوات الله عليه في جوانب مختلفة: تربوية، وسياسية واقتصادية واجتماعية وعلمية وجهادية ودعوية..

والقرآن الكريم في عرضه للسيرة النبوية يركز على الدروس والعبر ويتناولها في آيات موجزة كما عهدنا في بلاغته.

وقد وضحت كتب التفسير ما سبق ذكره وشرحته وبينت الكثير من الآيات القرآنية.

2-كتب الحديث النبوي وشروحه: وهي من أهم مصادر سيرة رسول الله ﷺ، حيث نقلت لنا بالأسانيد الصحيحة الكثير من أحداث السيرة المطهرة ومغازي رسول الله ﷺ كما قامت بوصف حياته وأيامه وسيرته مع أصحابه وصفاً دقيقاً، إضافة إلى بيان كثير من الجوانب الدعوية والاجتماعية والتربوية والسياسية والاقتصادية...

كما خصصت هذه الكتب قسما هاما للمغازي والسير: ففي صحيح البخاري كتابا للمغازي، وفي مسند الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني (ت241هـ) الآلاف من الأحاديث حول سيرة رسول الله ﷺ وشمائله، وترتيب الشيخ البَنَّا الساعاتي -رحمه الله- له الموسوم بـ:(الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني) جعل فيه للسيرة النبوية ما يقرب من المجلدين. هذا إضافة إلى الأحاديث النبوية الشريفة المبثوثة في بطون أسفار السنة النبوية وباقي كتب الحديث التسعة ودلائل النبوة للإمام البيهقي (458 هـ) رحمه الله وغيرها من الكتب النفيسة.

هذا فضلا عن شروح كتب السنة؛ كشرح الإمام ابن حجر العسقلاني رحمه الله (ت856هـ) على صحيح الإمام البخاري رحمه الله (ت256هـ)الموسوم بـ"فتح الباري" وشرح الإمام النووي رحمه الله (ت676هـ) على صحيح الإمام مسلم رحمه الله (ت261هـ) وغيرهما.

3-كتب المغازي والسير والدلائل والشمائل: هذه الكتب تلي القرآن الكريم والحديث النبوي، ولهذه الكتب أهمية كبيرة وقيمة علمية لا يستهان بها لكونها كتبت في عهد مبكر جدا، في عهد التابعين ﷺ وكان صحابة رسول الله ﷺ موجودين مما يقلل تعرضها للتحريف والضياع ويضفي عليها التكامل في التسجيل والثقة في الرواية والنقل، وقد اشتهر عدد من الصحابة ﷺ باهتمامهم بالسيرة، منهم: ابن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، والبراء ابن عازب ﷺ.

وكتبت بعض أحداث السيرة على يد التابعين والصحابة متوافرون مقرون لهم بذلك ومن هؤلاء: أبان بن عثمان (ت105-101هـ) وعروة بن الزبير (ت94هـ)، والشعبي (ت103هـ).

وممن اهتم بالسيرة الزهري (ت124هـ) فقد تلقاها عن جمع من الصحابة ﷺ وعن كبار التابعين.

ومن أصح كتب المغازي وأوثقها "كتاب المغازي" للإمام موسى بن عقبة-رحمه الله-.

وممَّن ألف في السيرة أبو المعتمر سليمان بن طرخان التيمي (ت143هـ) وهو من العباد الثقات، وقد رواها عنه ابنه معتمر، وقد ذكر هذه السيرة أبو بكر بن خير الأشبيلي في "فهرسته" (ص:231)، ونقل عنها ابن سيد الناس، والسهيلي، وابن كثير، وابن حجر وغيرهم.

وممن علا صِيته واشتهر في السيرة النبوية حتى نسبت إليه: الإمام محمد بن إسحاق (ت151هـ) وهو من تلاميذ الزهري، وهو إمام هذا الشأن وكل الناس عالة على سيرته،

وقد هذبها الإمام ابن هشام (ت218هـ) واستدرك عليها وحذف حشوها وكل ما لا يتعلق بالسيرة النبوية، وحذف منها تاريخ الأنبياء، وما لا يصح من الشعر، وهي التي بقيت في أيدينا الآن، ثم شرحها الإمام السهيلي (ت518هـ).

ومن كُتَّاب السيرة أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي المشهور بالواقدي وهو من أئمة هذا الشأن، فقد اهتم بالوقائع والمغازي وسأل عنها أبناء الأنصار، وحاول أن يقف على كثير منها.

ويعتبر كتابه "المغازي" مصدرا مهما من مصادر السيرة النبوية العطرة، حيث ميزه اهتمامه بالدراسة الميدانية للمواقع الجغرافية في الغزوات والسرايا النبوية مما يجعله مصدرا هاما في هذا المجال.

أضف إليه جودة عرضه للمادة العلمية وتنظيمها في مغازيه، فضلا عن إضافته لبعض المسائل العلمية وخصص لها فصلا كاملا.

ومن كتب السيرة النبوية: "عيون الأثر في فنون المغازي والسير" لأبي الفتح اليعمري الشهير بابن سيد الناس (ت734هـ)، و"السيرة النبوية" لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي (ت748هـ).

4-كتب التاريخ العام: تناول أصحاب كتب التاريخ العام القدامى في مؤلفاتهم فصولا مهمة عن سيرة سيدنا رسول الله ﷺ ومغازيه... مثل:

"تاريخ الأمم والملوك" للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت310هـ)؛ وهذا الكتاب من أنفس كتب التاريخ رغم ما فيه من روايات موضوعة ومتروكة؛ إذ ذاك شأن المؤرخين الذين ينقلون الحادثة كما هي، ويترك الحكم عليها لأهل الصنعة، وهذا لا ينقص من مكانة الكتاب العلمية وفوائده الجليلة.

كتاب "البداية والنهاية" للإمام ابن كثير(ت774هـ)، وقد تعرض للحديث عن السير والمغازي في أكثر من مجلدين؛ والكتاب فريد في بابه هام بما تحمله رواياته المتعددة

والمتنوعة. والحافظ ابن كثير لم يتخصص في السيرة النبوية فقط بل تحدث عن تاريخ الإسلام ككل من بداية الخَلق إلى عصر المؤلف كما يتضح ذلك جليا في كتابه هذا.

"الكامل في التاريخ"، لابن الأثير الجزري (ت632هـ)؛ خصص فيه أبوابا للسيرة النبوية رتب أحداثها ترتيبا تاريخيا.

كتاب "فتوح البلدان" لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذُري (ت279هـ)؛ تناول فيه جزءا مهما من سيرة رسول الله ﷺ ومغازيه.

كتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، للإمام أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت346هـ)، كان لذكر غزوات رسول الله ﷺوسراياه الجانب الأوفر في حديثه عن السيرة النبوية.

كتاب «تاريخ الإسلام»، للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت661هـ)، حققه وقدم له وأعد فهارسه: محمد محمود حمدان، أفرد الجزء الأول للمغازي النبوية، وللكتاب أهميته لكونه حافلا بالفوائد والمنافع. وله كتاب: «سير أعلام النبلاء» خصص المجلد الأول والثاني من مجلداته الأربعة عشر للسيرة النبوية، ونهج فيه منهجا نقديا. و«التاريخ الإسلامي» للعلامة محمود شاكر خصص مجلدا منه للسيرة النبوية.

وغير هذا من كتب التاريخ العام التي خصصت للسيرة النبوية جانبا مهما.

5-كتب الأنساب: هذه الكتب مهمة جدا، لكونها تتبع النسب النبوي، وأنساب العرب، وتشعبها على القبائل، فموضوعها هو بيان نسبة المترجمين إلى قبيلة أو بلدة أو قرية أو ولاء، وإلى جانب ذلك تهتم بالترجمة لرسول الله ﷺ.

وتعتبر كتب الأنساب من المصادر الأصلية للسيرة النبوية؛ لأنها تجمع بين الإشارة إلى نسب رسول الله ﷺ، وأنساب أصحابه ﷺ، والكلام على أحداث السيرة النبوية، كما تتوسع في ذكر الأيام والأخبار المتصلة بالأنساب.

ومن أهم هذه الكتب: نسب قريش، لأبي عبد الله المصعب الزبيري (ت236هـ)، وأنساب قريش، لعبد الملك بن حبيب القرطبي (ت238هـ)، وجمهرة نسب قريش وأخبارها، للزبير بن بكار (ت256هـ)، وأنساب الأشراف، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت279هـ)، والأنساب، لقاسم بن أصبغ البياني القرطبي(ت340هـ)، وغيرها.

وقد جمع مصنفو هذه الكتب بين السيرة والتاريخ معًا؛ لأنهم يقدمون معلومات مهمة وفوائد جمة أثناء عرضهم لسلاسل الأنساب، مع توقفهم عند بعض الأسماء التي كانت لها مكانة في الجاهلية والإسلام، كما تحفل كتبهم بشعر غزير جدا، يستشهدون به على على تلك الأنساب والأخبار.

ب- المصادر التكميلية:

المصادر التكميلية لدراسة السيرة النبوية هي:

1-كتب التراجم التي تترجم للجيل القرآني الذي عاش أحداث السيرة العطرة؛ ومعرفة صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وثيق الصلة بالسيرة النبوية؛ فهم من عاصر صاحب السيرة الغراء، ولازموه في كل الأوقات، وهم من عاينوا أحداث السيرة العطرة، وعاشوا وقائعها، وخاضوا مع رسول الله ﷺ معاركها، وهم جنود رسول الله ﷺ وقادة سراياه وبعوثه، وحاملوا ألويته ورياته، وهم أحبابه، إليهم المرجع في تاريخ السيرة النبوية العطرة.

ومن الكتب التي ترجمت لذلك الجيل القرآني:

-"الاستيعاب في معرفة الأصحاب" للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله ابن عبد البر النمري (ت463 هـ)، و"أسد الغابة في معرفة الصحابة" للإمام الحافظ عز الدين علي بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير(ت630 هـ)، و"الإصابة في تمييز الصحابة" للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (ت852هـ)، و"طبقات خليفة بن خياط": للحافظ أبي عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني

العُصْفُوري البصري المعروف بشباب(ت240هـ)، و"الطبقات الكبرى": للإمام أبي عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، و"السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين" و"الرياض النضرة في مناقب العشرة" للإمام الشيخ أحمد بن عبد الله الشهير بالمحب الطبري(ت694هـ)، و"فضائل الصحابة" للإمام أحمد بن حنبل، و"فضائل الصحابة" للإمام علي بن عمر الدارقطني (ت385هـ)، و"حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" للإمام أبي نعيم أحمد الأصبهاني (ت430هـ).

2- كتب الأدب (مجاميع النثر والشعر) التي تلقي الضوء على الحياة الثقافية والاجتماعية والأطعمة والعوائد.

هذه الكتب حفظت لنا أخبارا ضاعت في الغالب مصادرها، ومن هذه الكتب:

"البيان والتبيين"، لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي أبو عثمان الشهير بالجاحظ (ت255هـ)، هذا الكتاب مليء بأخبار السيرة النبوية، ثم مؤلَّفه الأشهر: "البرصان والعرجان والعميان والحولان"، الذي يوجد به من أخبار السيرة ما لا يوجد في غيره، ومنها كذلك كتاب: "العقد الفريد"، لابن عبد ربه الأندلسي (ت328هـ). وغيرها.

والغرض الأساس من هذه الكتب هو الأدب وطُرَفُه، والبلاغة وسحرها، ومع ذلك فقد ساقت العديد من أخبار السيرة، والخطب، والحديث النبوي، والبلاغة النبوية، ورغم ورود هذه الأخبار بالأسانيد، إلا أنه لابد من تمحيصها وتدقيقها، وفق منهاج علماء المسلمين في الجرح والتعديل.

أما دواوين الشعر فمن أهمها: طبقات فحول الشعراء، لابن سلام الجمحي (ت231هـ)، "الشعر والشعراء" لابن قتيبة (ت276هـ)، وغيرهما.

3-كتب الجغرافية التاريخية أو كتب البلدان: هذه الكتب تسلط الأضواء على تضاريس الجزيرة العربية وهضابها التي وقعت فيها المعارك والغزوات النبوية، إضافة إلى بيان مستوى المعيشة وحاصلاتها الزراعية والمسافات بين المدائن والطرق والأماكن وتوزيع القبائل... كـ"معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع" لأبي عبيد البكري

(ت487هـ). و"معجم البلدان" لأبي عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت626هـ). ومن المعاصرين "أطلس السيرة النبوية" لشوقي أبو خليل. وغيرهم.

6- مراحل تدوين السيرة النبوية الشريفة

مر تدوين السيرة النبوية بالمراحل الأساسية الآتية:

أ- مرحلة الرواية: بدأها صحابة رسول الله ﷺ رضوان الله عليهم في نقل ما شاهدوه وسمعوه من رسول الله ﷺ.

ب- مرحلة التجميع: بدأت بوادرها في عهد النبوة ثم تطورت في عهد الصحابة والتابعين وصنفت مصنفات خاصة في السير والمغازي كما سبق أن رأينا.

ت- مرحلة التوثيق والتهذيب والنقد: بدأها ابن هشام في تهذيب سيرة ابن إسحاق، والذهبي في سير أعلام النبلاء، والسهيلي في الروض الأنف...

ث- مرحلة المستشرقين وتلاميذهم: بدأت هذه المرحلة من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وتشكل هذه المرحلة منعطفا خطيرا في تناول السيرة النبوية العطرة، حيث تناول أولئك المستشرقون السيرة النبوية من منظور منهجهم الذاتي والمادي بعيدا عن علوم التوثيق وحقائق التاريخ وحقيقة الرسالة، بل اعتمدوا منهج بث الشكوك حول نبي الإسلام ورسالة القرآن وأتباع النبي العدنان ﷺ. ككتاب: "الرسول- حياة محمد" للمستشرق البريطاني ببودلي، و"حياة محمد" لدرمنغم، "وحياة محمد وعمله" سبرنجر. وغيرهم.

جـ- مرحلة الصحوة: تشكل هذه المرحلة انقلابا على المستشرقين؛ بحيث أعادت للسيرة النبوية مكانتها ورفعتها وبهاءها، كما استمرت في الدراسة والتأليف بمناهج علمية مختلفة، تحليلا ودراسة واستنباطا وشرحا...

7- أقسام السِّيرة النَّبويَّة:

تنقسم أحداث السِّيرة النَّبويَّة التاريخية من حيث الزَّمن (من الميلاد حتى الوفاة) إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: من شروق شمس مولده وطلوع بدره ﷺ يوم الاثنين 12 ربيع الأول حتى البعثة النبوية المباركة ونزول الوحي عليه في غار حراء؛ وتمثِّل أربعين عاما، ويدرس في هذا القسم حالُ العرب والجزيرة العربية قبل البعثة النبوية، والأطوار التي مرَّت بها مكَّةُ المكرَّمة وبناء البيت العتيق؛ لكونها بيئةَ السِّيرة النَّبويَّة ومقدمة أحداثها.

القسم الثاني: من البعثة النبوية حتى هجرته ﷺ المباركة إلى المدينة المنورة، ويمثِّلُ هذا القسم ثلاثة عشر عامًا، ويسمَّى المرحلة المكية والعهدَ المكِّيَّ وعهدَ التَّأسيس والدَّعوة؛ وفيها نزولُ القرآن المكِّيِّ الذي اهتم بالعقيدة وتصحيحها وتقرير دلائلِ التَّوحيد وصفات الله تعالى، وبيان زيف الشرك وعبادة الأصنام، وإثبات الموت والبعثَ والنُّشور والجزاء والجنة والنار، والدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الخصال، والانتهاء عن المساوئ والشرور.

وفيها الدَّعوةُ بمراحلها المختلفة سرا وجهرا وطلبا للنصرة -للرسول ﷺ والرسالة- من القبائل، والدعوة خارج مكة بالطائف، ومواقف المشركين وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واضطهادهم للمؤمنين، وصبر المؤمنين وتحمُّلُهم الأذى والابتلاء في الله، وهجرتُهم الأولى والثانية إلى الحبشة، والحصارُ المشئوم لرسول الله ﷺ والمؤمنين وبني هاشم في شعب أبي طالب، والعرض على القبائل، وحادثة الإسراء والمعراج، وبيعة العقبة الأولى ثم الثانية، والهجرة إلى المدينة.

القسم الثالث: من وصوله ﷺ إلى المدينة في 12 ربيع الأول عام 1هـ وحتى وفاته والتحاقه بالرفيق الأعلى في 12 ربيع الأوَّل سنة 11هـ؛ وتمثِّلُ عشرة أعوام كاملة، ويسمَّى هذا القسم المرحلة المدنية والعهدَ المدنيَّ، وعهد البناء -بناء الدولة والمجتمع والأمة- والجهاد وانتشار الدعوة الإسلامية، وفيه الغزوات والسرايا والبعوث النبوية؛ حتى انتشر

الإسلامُ في الجزيرة العربيَّة كلها؛ وكذلك نزولُ التَّشريعات وتنظيمات المجتمع الإداريَّة والسِّياسية والاقتصادية والاجتماعية.

8- مولد الإنسانية:

حين يبزغ فجر الربيع على الدنيا يتبدد ظلامها، ويخضر يابسها، وتكسو الزهور أشجارها... الربيع فصل الجمال؛ يبعث في النفس الراحة والسعادة...

لقد امتاز شهر ربيع الأول بالجمال، لا لشيء إلا ليستعد لميلاد أجمل إنسان محمد ﷺ، فإن كان الربيع كسا الدنيا جمالاً وبهجة، ونضرة وخضرة، فإن سيدنا محمدًا ﷺ عطر نسيمه، وزاده رفعة وإشراقا...

إن رسول الله ﷺ هو المثل الأوحد في كمال الجمال وتناسقه، فهو أشرق الناس وجهًا، وأجملهم مظهرًا، وأحسنهم منطقًا، وأرقاهم خلقًا، وأحسنهم نسبًا، وأطهرهم سيرة، وأنقاهم سريرة... من بلغ في الجمال ما بلغه رسول الله ﷺ! ومن نال منه مثلما نال رسول الله ﷺ... أما بلغك مدح الله جمال خلقه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ (القلم)، أما أطرب أذنيك مقولة زوجه عائشة الصديقية: "كان خلقه القرآن"، ذلك في خُلُقه ﷺ... فهلا قرأت في خِلقته ما قاله كعب بن مالك ﷺ: "كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر"... سل من رأى رسول الله ﷺ من الصحابة ﷺ، سيقول لك؛ إذا أهلّ رسول الله ﷺ أضاء الكون من نور وجهه، وإذا طلع غادر الظلام مكان مطلعه، يراه الخائف فيطمئن، والمريض فيبرأ، والحزين فيفرح، والمكروب فيبتسم، ما رآه إنسان إلا أحبه، ومن ذا الذي يرفض رفقة القمر؟!

بل اسمع حكاية أم المؤمنين عائشة الصديقة -رضي الله عنها- وهي تقول: "استعرت من حفصة بنت رواحة إبرة كنت أخيط بها ثوب رسول الله ﷺ فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع نور وجهه فضحكت" أخرجه ابن عساكر.

إن جمال حبيبنا رسول الله ﷺ لا يوصف، ما استطاع صحابي ولا غيره أن يصف ما كان من جمال رسول الله ﷺ، ولما أرادت أحب الناس إليه عائشة –رضي الله عنها– أن تصفه قالت: "كان إذا رضي أو سُرّ، فكأن وجهه المرآة تلاحك وجهك"، فهل في الوجود صفاء مثلما كان في وجه محمد ﷺ، وهل في الوجود إشراق مثلما حوى وجه محمد ﷺ.

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسمِ

منزهٌ عن شـــريك في محاسنه فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ

أما بلغك كيف حير جمال النبي ﷺ جابر بن سمرة ودخل عليه مرة في ليلة مقمرة، فأخذ يقلب نظره في وجه رسول الله ﷺ والقمر، ثم قال: "لرسول الله أجمل من القمر". ولما اشتاق إلى وصفه "عبيدة بن محمد بن عمار بن ياسر" سأل عنه "الربيع بن معوذ بن عفراء"، قال: يا "ربيع"، صف لنا رسول الله ﷺ، قال: "يا "عبيدة" إذا رأيت رسول الله رأيت الشمس طالعة".

لا تعجب، فإن ما قاله ابن عباس–رضي الله عنهما– كان أعجب وأدق وصفًا، فقال: "إذا تكلم رسول الله ﷺ رُئي كالنور يخرج من بين ثناياه".

محمد ﷺ؛ هو ذلك الجمال الذي جعل "هند بن أبي هالة" يقول في وصفه ﷺ: "كان فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر". وأنَّى للقمر أن يدنو جماله من جمال رسول الله ﷺ، لقد وصف علي ﷺ عنق النبى ﷺ فقال: "كأن عنق رسول الله ﷺ إبريق فضة، وكأن الذهب يجري في تراقيه". فإن كان ذلك قوله في عنق رسول الله ﷺ، فما بالك بوجه رسول الله ﷺ، وإن كان علي ﷺ أبدع في ذلك، فإن أنس ﷺ قد فاقه حين مس كف رسول الله ﷺ فقال: "ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ". وشعور أوس ﷺ غير إحساس أنس ﷺ، فأوس كان وصفه بعد أن أخذ بيده ﷺ فأحس حسن الجمال، فراح يصدح يده ألين من الحرير، وأبرد من الثلج، حتى أنس وهو غلام يقول "لما دخل النبي ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء"، إنه ﷺ نور رباني، وجمال إلهي، إن كان يوسف الصديق عليه السلام أوتي شطر الجمال، فإن سيدنا محمدا ﷺ أوتي الجمال كله، لقد منحه الله الكمال البشري في كل

صفاته الخَلقية والخُلقية، فوهبه من الصفات المعنوية أقومها وأعدلها، ومن الصفات الحسية أحسنها وأجملها. فهو ﷺ أجمل الأنبياء على الإطلاق.

ولله در شاعر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت ﷺ القائل في هذا الجمال:

وأَحسنُ منكَ لم ترَ قطُّ عيني وَأَجْمَلُ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النّسَاءُ

خلقت مبــرءًا من كل عيب كأنما قد خلقت كما تشاء

ولد هذا الجمال يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل من أبوين كريمين هما عبد الله بن عبد المطلب، والسيدة آمنة بنت وهب -رحمة الله عليهما-، وقد توفي والد رسول الله محمد ﷺ وهو لا يزال جنينا في بطن أمه. ولما وضعته السيدة آمنة أرسلت إلى جده عبد المطلب أن ولد لك غلام (حفيد) فأسرع إلى البيت، وأخذه ودخل به الكعبة وأخذ يدعو الله، ويشكر له ما أعطاه، ومما روي في ذلك أن عبد المطلب أنشد أرجوزة مطلعها:

الحمد لله الذي أعطاني هذا الغلام الطيب الأردان

أرضعته أمه آمنة ثم بعدها ثويبة جارية عمه أبي لهب بضعة أيام، ثم استكملت رضاعه حليمة السعدية من بني سعد بن بكر، وقد امتلأ ثدياها باللبن بعد أخذه، ونالها خير كثير، وانتقلت حياتها من العسر إلى اليسر، ويذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ كان لا يقبل إلا على ثدي واحد، وكأنه فطر على أن يدع الثدي الثاني لأخته من الرضاعة.

فكان يوم مولده ﷺ يوم مولد كل الفضائل والخيرات: الحب والرحمة والعدل والأخلاق الحسان التي كانت الإنسانية في انتظاره منذ أمد بعيد.

فالمولد المحمدي لم يكن مولد فرد وإنما كان مولد أمة، ولم يكن مولد إنسان، وإنما كان مولد إنسانية، حيث رفع الله تعالى بمولده الشريف مقام الإنسانية، ونهض بمستواها إلى المرتبة التي كان يحلم بها الحكماء، ويرونها من أماني الخيال؛ فصارت الإنسانية عقيدة وديناً، بعد أن كانت أمنية ووهماً، وقامت لها في الأرض دولة تعد الصدق من دعائم دينها،

والحياء من شعب إيمانها، والرحمة من أسلحة جهادها، وإقامة العدل من شعائر مجتمعها، وإماطة الأذى عن كل طريق خلقاً إسلاميًّاً يتخلَّق به كلُّ من سار على خطى هذا الحبيب العظيم ﷺ.

لقد كان المولد النبوي الشريف إطلالة للرحمة الإلهية بالنسبة للتاريخ البشري جميعه، فلقد عبر القرآن الكريم عن وجود النبي ﷺ بأنه "رحمة للعالمين"، وهذه الرحمة لم تكن محدودة، فهي تشمل تربية البشر وتزكيتهم وتعليمهم وهدايتهم نحو الصراط المستقيم، وتقدمهم على صعيد حياتهم المادية والمعنوية، كما أنها لا تقتصر على أهل ذلك الزمان بل تمتد على امتداد التاريخ بأسره ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ... ﴿٣﴾﴾ (الجمعة).

إن يوم ميلاد محمد بن عبد الله العربي القرشي ﷺ علامة مضيئة في التاريخ الإنساني ليس للمسلمين فحسب وإنما للإنسانية جمعاء على اختلاف مللها وتعدد نحلها.

لم يكن ميلاده ﷺ حدثا تاريخيا عابرا يمر عليه المؤرخون مرورا، وإنما مثّل من خلال نبوته ورسالته أبرز دعوات التغيير والتربية في دنيا البشرية على الإطلاق.

فقد استطاع أن يجعل من الجزيرة العربية مصدر إشعاع عمراني أخوي رباني، قدمت الأمة من خلاله للعالم صياغة روحية ومادية حملت بين طياتها معالم البعد الرسالي لدعوة الإسلام عقيدة وشريعة دعوة وتربية ومنهاج حياة.

حيث تمكن سيدنا محمد ﷺ من أن يتبوأ قمة الهرم ليكون على رأس المصلحين الذين كان لهم أثر بارز في توجيه البشرية نحو الفضيلة والرشاد، وفي هذا يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

المصلحون أصابع جمعت يدا هي أنت بل أنت اليد العصماء

إن ميلاد فخر الكائنات ﷺ يعد ميلادا جديدا للإنسانية كلها. فحتى تشريفه للدنيا لم يكن هناك فرق بين الأسود والأبيض، ولا بين الليل والنهار، ولا بين الورد والشوك. كانت الدنيا وكأنها في مأتم عام، والفوضى تسود الوجود... وبفضل النور الذي أنار به

الوجود افترق الضياء عن الظلام، وانقلب الليل إلى نهار، وانقلب الكون إلى كتاب يمكن قراءته كلمة كلمة وجملة جملة وفصلا فصلا... كأن كل شيء قد بعث من جديد، ووصل إلى قيمته الحقيقية.

أجل!..فهو بالرسالة النورانية التي حملها بيديه الشريفتين كان يقوم بتنظيم الدنيا من جديد حسب قيم السماوات، وبوظيفة الترجمان للحقائق الموجودة خلف أستار الوجود، وبتقديم تفسير جديد ونظرة جديدة للأشياء وللحوادث. فقد كان الوجود قبله دون معنى ودون روح، قد تمزقت الروابط فيه، وأصبح كل شيء غريبا عن الآخر. كأن الجمادات كانت من قبله رموزا لمسيرة العبث في مسرح الوجود، وتبدو الأحياء وكأنها في قبضة الانتخاب الطبيعي، وفي كل يوم بقبضة موت مختلف. وفي مثل هذه الوحشة المظلمة كان الإنسان يئن من الفراق كل آن كيتيم وكمظلوم. بالنور الذي نشره انزاحت الأستار وزال سحر الظلام فجأة، وفرّت الشياطين، وهُزمت الضلالات واستقرت في أعماق الجحيم، وتغيرت ماهيات الأشياء، فانقلب الهدم إلى بناء، والانقراض إلى التعافي. وبدأ المجيء إلى الدنيا والرحيل عنها يأخذ شكل مراسيم عيد، المجيء إليها عيد ميلاد، وفراقها عرس رحيل.

منذ أن داعب نوره ﷺ رءوسنا زال عن أرواحنا رعب الفناء، وفاضت بشائر الوصال من ديار الأحبة على الصدور الملتاعة. وبإكسير الحياة الذي نفخه في قلوبنا وفي قلب الإنسانية كلها بدأنا ندرك أنفسنا ونفهمها، وندرك ماهية العلاقات بين الأشياء، ونستطيع تقييم القابليات الموجودة في ماهيتنا وجوهرنا، ونحدس بُعد اللانهاية الموجودة لدينا. لولاه لما اكتشفنا هذا العمق الموجود في أرواحنا، ولا استبشرنا وفرحنا بالرحلة التي تمر من القبر نحو اللانهاية. هو الذي نثر على قلوبنا انفعالات الوجد والعشق... هو الذي أنار عيوننا بالنور... وهو الذي هيأنا للرحلة إلى بلد الأبد والخلود.

هو بالنسبة للعالم الذي نرحل إليه ونصله. المضيف ومستقبل الضيوف ودليلهم، وشفيع لنا. لذا كانت هناك مسؤوليات معينة لنا تجاهه، ولا يمكن أن نبقى غير مبالين بهذا الأمر أبدا. ولكن الغريب أننا طوال عصور عديدة بقينا غير مبالين برمز الضياء هذا

وبرسالته النورانية... لا، ليس فقط غير مبالين، بل أحياناً تصرفنا دون توقير واحترام تجاهه.

إن الله بعث صاحب هذه الرسالة الكريمة ﷺ؛ لتكون لنا به أسوة حسنة، أي لنحاول السير معه من ورائه؛ فنضع قدمنا على آثار قدمه الشريفة، لا نخرج عن طريقه إلى أي طريق آخر، وإن طريقه لا تحوجنا إلى التماس طريق آخر، لا طريق موسكو، ولا طريق لندن، ولا طريق واشنطون، ولا طريق باريس، وكل ما عرف الناس وسيعرفون من حق أو خير فإن النظام المحمدي يدل عليه، ويوصل إليه من أيسر الطرق، وأجملها.

ولله درّ الإمام البوصيري -رحمه الله- القائل:

دع ما ادّعتْهُ النصـــارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظمِ

فإن فضـــل رســـول الله ليس له ... حـــدٌّ فيعـــرب عنه ناطـــقٌ بفمِ

المحور الثاني

منهاج النبي ﷺ في التدرج في الدعوة

إن التدرج في كل شيء سنة إلهية مقررة في الشريعة الإسلامية بصورة لاحبة، وفي المنهاج النبوي أمثلة كثيرة، نركز حديثنا في هذا المحور على التدرج في الدعوة الإسلامية.

لقد مكث سيدنا رسول الله ﷺ ثلاثة عشرة عاما في مكة يدعو الناس إلى الحق وإلى صراط مستقيم. وسلك سنة التدرج، فكانت الدعوة سرا ثم جهرا ثم دعوة القبائل ثم الهجرة إلى الطائف ثم إلى الحبشة ثم إلى المدينة وإقامة الدولة المسلمة التي تحمي الدعوة وتخدمها.

فالتدرج سنة في الآفاق، فالشريعة الإسلامية نزلت بتدرج، وخروج المسلمين من جاهلية لإسلام بتدرج، وتميزوا عن مظاهر الجاهلية ومجتمعها وقطعوا حبالها بتدرج، وبعد الهجرة إلى المدينة أقاموا مجتمعا عمرانيا أخويا إسلاميا بتدرج.

وبناء على ذلك؛ فإن الذين يحسبون أن النصر والتمكين والفتح المبين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها، ويريدون تغيير واقع أمة الإسلام في طرفة عين، دون النظر في النتائج والعواقب، ودون فهم للظروف المحيطة بهذا الواقع، والحياة العامة التي تعيشها الأمة، ودون أخذ بالأسباب وإعداد جيد للمقدمات، فإنهم يبنون على غير أساس.

على ضوء ما سبق ذكره فإن الدعوة الإسلامية تدرجت من البعثة إلى بناء الدولة في المدينة إلى مراحل طبقا لسنة التدرج.

1- سرية الدعوة:

استغرقت الدعوة السرية ثلاث سنوات، فكانت قاصرة على بيت النبوة فأسلمت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ومولاه زيد بن حارثة ﷺ، وابن عمه علي بن أبي طالب ﷺ[1]-وهو أول من أسلم من الصبيان-، ومن بيت النبوة إلى من لهم صداقة

(1) قال ابن القيم:"كان ابن ثمان سنين". زاد المعاد، 2/ 61.

بالنبي ﷺ فأسلم سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ قبل أن يطلبه النبي ﷺ بذلك-وهو أول من أسلم من الرجال على الإطلاق-؛ لما رآه من أنوار ربانية تشع من الحضرة المحمدية، فآوى إلى هذا الركن الشديد والسراج المنير؛ ليستضيء بنوره الشريف، وبإسلام أبي بكر ﷺ أسلم على يديه أصدقاءه الخمسة[1]، ومن بيت النبوة يخرج نور الدعوة إلى العشيرة والأقربين وكل من توسم فيه خيرا.

ثم أسلم بعد ذلك عدد من الصحابة ﷺ، ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا رجالا ونساء، حتى فشا ذكر الإسلام في أرجاء مكة وتحدث به القوم .

وفي هذه المرحلة أمر النبي ﷺ أصحابه بالتزام الحيطة والحذر والسر والكتمان وعدم الدعوة إلى الإسلام إلى أن يقضي الله أمرا كان مقدورا. فكانوا إذا أرادوا الصلاة "ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحي بعير فشجه فكان أول دم أهرق في الإسلام"[2] .

إن الإسلام ابتدأ كالنور في دياجير الظلام، فأشرقت به قلوب المؤمنين، فدخلها نورها واستقر بها في وسط ظلام الوثنية والكفر، أسلم قوم مستضعفون لكنهم ابتلوا بنقم الكافرين، ومنعوا حتى من إقامة شعائر العبادة.

وكان المستضعفون من المسلمين الأولين لا يستطيعون أن يجتمعوا ليتعلموا من رسول الله ﷺدينهم ويتشربوا المحبة والإيمان من منبع الصحبة النبوية الصافي، بل كانوا يجتمعون خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم، "قالوا إنه يجتمع في هذا البيت الطاهر نحو تسعة وثلاثين كانوا هم المجتمعين عندما أسلم عمر ﷺ وليس معنى ذلك أن الذين أسلموا كانوا هذا العدد فقط، فقد كان ثمة عبيد آمنوا، وكانوا في مهنة مالكي رقابهم، ومنهم من كان يعذب العذاب الأليم ليفتن عن دينه، ويكره على الخروج منه.

---

(1) هم سادتنا: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، رضي الله عنهم أجمعين. انظر: سيرة ابن هشام، 1/ 180.

(2) سيرة ابن هشام، 1/ 184. البداية والنهاية، 2/ 39.

ومن المؤمنين من كان يؤمن ويخفي إيمانه عن أهله: أبيه وأمه وأخيه فرارا من أن يفتتن بملام أو تعذيب فقد كان أهل كل بيت كان فيه من دخل في الإسلام يأخذ ذلك المسلم بالتأنيب واللوم الزاجر، ثم ينتقل المرء من اللوم إلى التعذيب، إن استرسلوا في غوايتهم، ولم يكن ما يمنعهم من رحم شفيقة، أو قوة عزيمة ممن منحه الله تعالى الإيمان، واعتصم ببرد اليقين"[1].

وهكذا انطلق ذلك النور من بيت النبوة إلى خارجه، ولكن لم يذهب بعيدا عن النبي ﷺ، فقد ذهب يضيء قلوب المقربين منه من أهل بيته ومن أصدقائه، أما أقرباؤه الأدنون كأبي لهب فلم يتبع دينه بل عارضه وكاد له واستهزأ به وحرض عليه أهل الكفر...

كل هذا يدل على نزاهة الإسلام وأنه لم يقم على العصبية وحمية الجاهلية، بل إن الإسلام جاء لمحو العصبية الجاهلية والنعرات القبلية.

بيد أن الدعوة السرية في هذه المرحلة وتواصي المسلمين بأخذ الحيطة والحذر، وتلافي الاصطدام المباشر مع المشركين، لا يعني أن المجابهة العقدية بين الدين الجديد والشرك كانت صامتة، بل إننا نجدها على أعنف ما تكون في القرآن الكريم نفسه وفي آياته الأولى. ففي سورة العلق حملة عنيفة على أحد زعماء قريش، في وقت لم يكن النبي قد آمن بدعوته -بعد- سوى نفر يعدون على الأصابع، ومن ثم يتبين لنا الموقف العصيب الذي واجهه الرسول ﷺ والجرأة العظيمة التي واجه بها هذا الموقف بأمر ربه، بما كان يوجهه إلى الزعيم القوي الغني الطاغي: المغيرة بن هشام المخزومي، مما يوحي إليه من آيات فيها الصفعات الداميات والشرر المحرق"[2]: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾ [العلق]. وهذا من تثبيت القرآن للدعوة المحمدية بمكة، والعظمة الخلقية التي تمتاز بها الرسالة القرآنية والجرأة الشديدة في الصدع الحق.

---

(1) خاتم النبيين ﷺ، 1/ 444.

(2) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص54.

وعلاوة على ذلك، فإنما كانت الدعوة ابتداء سرية لبناء القاعدة الإسلامية المتينة، وإن القواعد الأولى يكون بناؤها بالسر والكتمان لأن الجهر ينقضها قبل أن تبنى.

ومثل الدعوة الخفية كمثل تكون الجنين في بطن أمه، فإنه لا يظهر للوجود إلا حيا حياة كاملة، صالحا لأن يقاوم دواعي الفناء، والأخذ من عناصر البقاء والتغذي بكل أسباب القوة، فكذلك الدعوة إلى كل فكرة تقتضي التدبير الخفي، ثم الإعلان الجلي[1].

ولا ريب أن سرية الدعوة خلال السنوات الثلاث الأولى لم يكن بسبب خوف النبي ﷺ على نفسه ولا من إيذاء الكفار له، فهو حينما كلف بتبليغ رسالة الإسلام ونزل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر] علم أنه رسول الله إلى الناس كافة، وهو لذلك يوقن بأن الله الواحد الذي ابتعثه برسالته وكلفه بدعوته قادر على أن يدفع عنه مكائد الكفار والمشركين ويعصمه من الناس أجمعين، على أن الله عز وجل لو أمره بالجهر بالدعوة في أول يوم لما توانى في تبليغها ساعة ولو كان ثمن ذلك روحه.

"ولكن الله ألهمه –الإلهام للرسول نوع من الوحي إليه– أن يبدأ بالدعوة في فترتها الأولى بسرية وتكَتُّم، وأن لا يلقى بها إلا من يغلب على ظنه أنه سيصيخ لها ويؤمن بها، تعليما للدعاة من بعده، وإرشادا لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها. على أن لا يتغلب كل ذلك على الاعتماد والاتكال على الله وحده"[2].

2- الدعوة جهرا:

بعد الدعوة السرية التي دامت ثلاث سنوات كان لابد من التدرج إلى مرحلة أخرى، وهي الدعوة الجهرية باللسان فقط التي استمرت إلى الهجرة النبوية، يقول الدكتور عماد الدين خليل:"بعد أن تم بناء القاعدة (الصلبة) للدعوة متمثلة بأولئك الرواد الأوائل من المسلمين الذين انتموا للإسلام عبر سنينه الصعبة وغربته، والذين علمتهم التجارب المقدرة على الصمود بوجه الضغوط مهما غلا الثمن، والذين أنضجتهم حشود الآيات

(1) خاتم النبيين ﷺ، 1/ 388.

(2) فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي، ص69.

القرآنية التي كانت تتنزل ﴿... عَلَىٰ مُكۡثٖ ...١٠٦﴾ [الإسراء] حينا بعد حين...أصدر الله أمره إلى رسوله الكريم أن يتجاوز المرحلة السرية للدعوة صوب الجهر والإعلان...وهذا أمر لابد منه لدعوة عالمية شاملة جاءت لكي تثبت وجودها المنظور في الأرض العربية أولا، وفي العالم المحيط ثانيا.. كل ذلك في فترة لا تعدو ما تبقى للرسول ﷺ من سن عمره المحدود"[1].

قال ابن إسحاق: "ثم إن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاءه منه وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه؛ وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه؛ ثم قال الله تعالى له: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر].

وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر]"[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما نزلت ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: "يا بني فهر يا بني عدي" لبطون قريش، حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغِيرَ عليكم أكنتم مُصَدِّقِي؟" قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقا، قال: "فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد". فقال أبو لهب: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ٢﴾ [المسد]"[3].

هكذا استمر النبي ﷺ يدعو الناس إلى ربهم وإلى ما فيه خير الدنيا والآخرة بالصبح والغلس، وبالسر والجهر، لا يثنيه عن ذلك أحد ولا يصرفه عن ذلك صارف، ولا يصده

(1) دراسة في السيرة، ص88.
(2) سيرة ابن هشام، 1/ 184. تاريخ الطبري، 1/ 553.
(3) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ (الشعراء:87)، ح4770.

عن غايته صاد، يبلغ رسالة ربه للناس في أنديتهم وفي المواسم، وفي مواقف الحج؛ "يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي، وغني وفقير، جميع الخلق في ذلك عنده شرعٌ[1] سواء"[2].

ومع ما لقيه النبي ﷺ من الابتلاء والاستهزاء من قِبَل أقربائه وقومه لم يتوقف عن الدعوة، بل استمر في تبليغ رسالته للناس، ومنذ اليوم الذي اجتمع فيه بأقربائه وعشيرته في أطراف مكة، وقابلوه بصد محزن، منذ تلك اللحظة انفجر الصراع الواضح المكشوف بين أهل الإيمان وأهل الكفر.. وفق سنة الله في تنازع الحق والباطل، واستخدم أهل الكفر كل الأساليب والوسائل لصد الناس عن دين الله؛ لكن أهل الإيمان من المستضعفين لم يؤمروا بالرد وبالقتال –طيلة المرحلة المكية– لئلا يتعرضوا لعملية إبادة تحقق لعباد الأوثان ولأهل الكفر ما كانوا يأملونه ويرجونه.

وإلى جانب هذا وذاك كان النبي ﷺ يدعو أصحابه إلى الثبات على الحق ويرفع هممهم ويشحذها وينفخ فيهم روح المقاومة ويرسم لهم بحكمته النبوية البالغة، وبالهدي القرآني طرائق النصر والتمكين والوسائل التي تقربهم من هدفهم وغايتهم.

وكلما زادت شرارة الابتلاء والمحنة ساق الله تعالى إلى الدعوة رجالا كبارا لهم مكانتهم في المجتمع ولهم وزنهم في مجرى الأحداث وقدرتهم على مواجهة التحديات والصعاب.. ومن أمثال هؤلاء إسلام أسد الله حمزة بن عبد المطلب والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إنها " أمثلة بينة على الإرادة المعجزة التي تسوق وفق منطقها وقضائها الذي لا راد له رجالا من قلب الجاهلية، ومن صميم زعامتها، إلى ساحة الحركة الجديدة، ليسوا عاديين، وإنما قادة وزعماء كانت لهم أهمية كبيرة في إيجاد نوع من التوازن في القوى بين الدين الجديد والجاهلية يمكن الإسلام من أن يشق طريقه وسط ركام من العوائق والمصاعب والآلام"[3].

---

(1) شرع: أي سواء. مختار الصحاح، مادة: شرع، ص151.
(2) البداية والنهاية، 2/ 43.
(3) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص89–90.

ولذلك كان إسلام أسد الله حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بداية عهد جديد للإسلام، "كان المسلمون في الأول مستضعفين يرامون بالسوء، ولا يدفعون السيئة بمثلها ولا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم، ولا يرقب فيهم أعداؤهم ذماما، ولا مراعاة حسن جوار، أو لمودة، أو لقربى، بل يسومونهم العذاب، ويريدونهم على الهوان من غير أن يتوقعوا دفعا، وذوو المروءات من المشركين إن تابوا عن الأذى فلأنهم لا يريدون أن يرتكبوا نذالة في إيذاء عبد ضعيف، أو من لا يملك ردا.

ولما أسلم أسد الله حمزة ﷺ أحس أبو جهل بالضربات الموجعة تقع على رأسه، وبالدم يسيل منه، فإن تخفف له نصراء من قومه خشي المعركة، وأن يكون ابتداؤها هذا وهو يخاف نهايتها، كشأن كل من يكون ناقص المروءة، يستعدي على الضعفاء، ويخاف الأقوياء.

ولما أسلم الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ كانت الكارثة على الوثنية والشرك وأهل الكفر، وكانت العزة والقوة والمنعة للإسلام والاعتزاز به والجهر به، ووقوف المسلمين صفا واحدا، بعد أن كانوا فرادى متفرقين بسبب ما لاقوه من المشركين.

وبذلك ظهر الإسلام، فظهر النور، وسارت الركبان، بما اعتز به الإسلام، وانخذل الشرك، وتحول الاضطهاد من الآحاد إلى الجماعات"[1].

3- البحث عن قاعدة حرة للدعوة:

إن النبي ﷺ المؤيد بالوحي من رب العالمين أسوة جميع المسلمين لم يخرج عن سنن الله في هذا الكون، بل التزم بها التزاما كاملا، ويتضح هذا في اتخاذه كل التدابير والأسباب لتوسيع دائرة الدعوة الإسلامية، فلم يبق محصورا في مكة فقط، بل لما بالغ المشركون في إيذائه وإيذاء أتباعه خطط تخطيطا محكما مسددا بالوحي، ولهذا كان الأمر بالهجرة إلى أرض الحبشة لإبعاد الأتباع عن بطش الوثنية، والبحث عن قاعدة حرة آمنة للدعوة حيث يمكن لها أن تسير سيرها دون عراقيل.

(1) خاتم النبيين ﷺ، ص452-453.

وهنا يحق القول أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت لنشر الدعوة الإسلامية، والبحث عن قاعدة حرة لها تمكنها من مباشرة عملها ومهامها بدون أي اضطهاد أو صد. أما القول بأن سبب الهجرة إليها هو النجاة بأنفسهم والحفاظ على أرواحهم فلا يستند إلى قرائن قوية. فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس جاها وقوة ومنعة من المسلمين. غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا. إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم -في بيئة قبلية- ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة؛ وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين، منهم جعفر بن أبي طالب والزبير بن العوام، وهاجرت نساء كذلك من أشرف بيوتات مكة ما كان الأذى لينالهن أبدا.. وربما كان وراء هذه الهجرة أسباب أخرى كإثارة هزة في أوساط البيوت الكبيرة في قريش؛ وأبناؤها الكرام المكرمون يهاجرون بعقيدتهم، فرارا من الجاهلية، تاركين وراءهم كل وشائج القربى، في بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً عنيفا؛ وبخاصة حين يكون من بين المهاجرين مثل أم حبيبة بنت أبي سفيان، زعيم الجاهلية، وأكبر المتصدين لحرب العقيدة الجديدة وصاحبها.. "[1]. ولهذا فقد كانت الهجرة إلى أرض الحبشة للبحث عن أرض خصبة لزرع الدعوة وللبحث عن قاعدة حرة لها، أو آمنة على الأقل. وبخاصة حين نضيف إلى هذا ما ورد في الروايات الصحيحة عن إسلام نجاشي الحبشة. ذلك الإسلام الذي لم يمنعه من إعلانه نهائيا إلا ثورة البطارقة عليه.

فكانت الهجرة إلى أرض الحبشة عبر مرحلتين:

أ) الهجرة الأولى[2]: بعد الدعوة سرا ثم جهرا في مكة، حيث عُذِّب من دخل في دين الإسلام عذابا شديدا، كان لابد من البحث عن أنصار جدد للدعوة وعن قاعدة حرة آمنة لها، ولهذا أدرك سيد الوجودﷺ بعد سنتين من الجهر بالدعوة ألا قدرة له على حماية أتباعه من البلاء ينزل بهم ليل نهار، وأن الزعامة الوثنية ماضية في عنفها واضطهادها وتعذيبها لهم، مصممة على استخدام أي أسلوب لوقف الدعوة عند حدها وخنقها وهي بعد في المهد..

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 29.

(2) كانت في شهر رجب من سنة خمس من المبعث.فتح الباري، 7/ 216.

ورأى أن يمنح المعذبين المضطهدين فترة من الوقت يستردون فيها أنفاسهم ويستعيدون قواهم النفسية والجسدية، ويعودون ثانية إلى ساحة الصراع وهم أقدر وأصلب.. وعسى الله أن يحدث -خلال ذلك- أمرا كان مفعولا. فأشار بالهجرة إلى الحبشة"[1]، فخرج المسلمون إليها، وكان أول المهاجرين:[2] عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وكان مجموع هذه الهجرة الأولى اثني عشر رجلا، وأربع نسوة[3].

ولا ننسى المرأة الصحابية وما تحملته من أعباء الاضطهاد والهجرة، جنبا إلى جنب مع المؤمنين في سبيل الله... وهنا تتبين المكانة الرفيعة التي حظيت بها المرأة شقيقة الرجل في الإسلام والمسئوليات الجسام التي حملها إياها، بعد أن كانت تدفن وهي حية في الجاهلية الجهلاء، وتعامل كالحيوانات.

ب) الهجرة الثانية: وبعدما مضى على هجرة من هاجر إلى الحبشة ثلاثة أشهر رجعوا إلى مكة، فلقوا من المشركين أشد ما عهدوا، فهاجروا ثانية، وكانوا ثلاثة وثمانين رجلا، وثماني عشرة امرأة"[4].

ولا ريب إذن، أن الهجرة إلى الحبشة لها ثمرة أخرى غير دفع الأذى والعذاب، والاعتصام منه ومنع الفتنة التي أرهقوا بها عسرا، وهذه الثمرة هي التعريف بالإسلام وبمبادئه وتبليغ الدعوة الإسلامية ، فقد وقف جعفر الطيار ﷺ المتحدث باسم المهاجرين أمام النجاشي يبين الحقائق الإسلامية والمبادىء القرآنية، وغاية الدعوة المحمدية، وأهم مبادئ الإسلام وما يدعو إليه دين التوحيد من صلة الرحم، والحث على مكارم الأخلاق، وما يمنعه من فساد الجاهلية ونعراتها العصبية.

هذا إضافة إلى تعريف النصارى بالإسلام، وما قاله القرآن في المسيح عيسى بن مريم -عليهما السلام-، فهي تزرع الإسلام في غير أرض مكة، كما أن الهجرة من بعد ذلك إلى يثرب

(1) دراسة في السيرة، ص64.
(2) قال ابن كثير: وروى الواقدي أن خروجهم كان في رجب سنة خمس من البعثة، وأن أول من هاجر منهم أحد عشر رجلا وأربع نسوة. البداية والنهاية، 2/ 70.
(3) زاد المعاد، 2/ 63. نور اليقين، ص64.
(4) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 1/ 209. سيرة ابن هشام، 1/ 255.

كان فيها تعريف اليهود بالإسلام ومبادئه ودعوتهم إليه وهم أهل كتاب وقد عرفوا الصفات المحمدية المذكورة في كتابهم. فدخل في الإسلام رجال وكفر وعاند من تكبر واستكبر.

4- البحث عن سند اجتماعي للدعوة:

لم يغفل النبي ﷺ -مع كونه مؤيدا بالوحي مشمولا بالرعاية الإلهية- التحرك في ظلال سنن الله الاجتماعية؛ لكونه بلا ريب القدوة النموذجية للمسلمين في كل العصور في علاقتهم بالكون والحياة والناس.

ولذلك قام ﷺ بجملة من التدابير، اتخذها لمعالجة الأمر في سياق خطته المنهاجية المحكمة التي شكلت البحث عن سند اجتماعي وموقع جديد للانطلاق في بناء الدولة محورها الرئيس.

ومن ثم فالدعوة في حاجة إلى سند اجتماعي لها لتنجز مهامها المنوطة بها، ولهذا لما بالغت قريش في إيذاء النبي ﷺ هاجر إلى الطائف لعله يجد سندا اجتماعيا قويا لدعوته، أو آذانا صاغية لكلمة الحق، أو قلوبا واعية لوظيفتها في هذه الحياة، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه وجد عكس ذلك، الإنكار والإيذاء، فشُجَّ[1] النبي ﷺ في رأسه الشريف شجاجا[2]،وقعدوا له سفهاء ثقيف صفين على طريقه، "فلما مر رسول الله ﷺ بين صَفَيْهم جعل لا يرفع رجليه ولا يضعها إلا رَضَخُوهما[3] بالحجارة، حتى أَدمَوا رجليه"[4]، وكان صلوات ربي وسلامه عليه، "إذا أذلقته[5] الحجارة قعد إلى الأرض، فيأخذون بعضديه فيقيمونه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون"[6]، حتى خلص منهم، ورجلاه الشريفتان تسيلان دما، "فعمَد إلى حائطٍ من حوائطهم فاستظلَّ في ظل حَبَلَةٍ منه وهو مكروب موجع"[7].

---

(1) شَجَّ رأسَهُ يَشِجُّ ويَشُجُّ كسَرَه. القاموس المحيط، باب الجيم، فصل الشين، ص220.
(2) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، 1/ 232.
(3) رضخوهما: رموهما. القاموس المحيط، باب الخاء، فصل الراء، ص276.
(4) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، 1/ 232.
(5) أذلقته: أضعفته. القاموس المحيط، باب القاف، فصل الذال، ص899.
(6) عيون الأثر (تحقيق الخطراوري ومتو)، 1/ 232.
(7) عيون الأثر، نفس الجزء والصفحة..

بعد كل الجهود التي بذلها رسول الله ﷺ لدعوة قومه إلى الإسلام، ومقابلتهم إياه بالتكذيب والإنكار والإيذاء، كان لابد من أن توسع دائرة المدعوين إلى الإسلام حسب سنة التدرج، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به.

واستمر حبيبنا رسول الله ﷺ على ذلك حتى موسم الحج، فخرج النبي ﷺ فلقي رهطا من الخزرج الذين أراد الله بهم خيرا، فعرض نفسه ورسالته وما أرسل من أجله -كما كان يفعل في كل موسم من المواسم-، وتلا عليهم القرآن. قال: وكان مما صنع الله بهم في الإسلام أن يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوث الآن قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا[1].

فلما قدموا المدينة إلى أهلهم وقومهم ذكروا لهم ما سمعوا من رسول الله ﷺ وما دعاهم إليه من الهدى والحق، فبلغوا رسالة نبيهم حتى فشى ذلك في المدينة فلم يبق بيت من بيوتهم إلا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ وما أتى به من الحق والنور.

حتى إذا كان العام القادم وفي موسم الحج عام 11 من النبوة حضر منه الأنصار 12 رجلا، ولقيهم رسول الله ﷺ في العقبة فبايعوه بيعة العقبة الأولى على أن يوحدوا الله لا يشركوا به شيئا، ولا يزنوا ولا يسرقوا، ولا يقتلون أولادهم، وعلى طاعته-كانت بيعة

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 310. عيون الأثر (تحقيق: الخطرواي ومتو)، 1/ 262. البداية والنهاية، 2/ 155. مغازي ابن عقبة، ص89. أنساب الأشراف، 1/ 239 وما بعدها. تاريخ الطبري، 1/ 572.

نساء قبل فرض القتال-، ثم قفلوا راجعين إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير ﷺ ليعلمهم الدين ويقرئهم القرآن، ويدعو من يأتيه إلى الإسلام.

وبعد عامين كانت بيعة العقبة الثانية في موسم الحج كذلك عام 13 من النبوة وحضرها 70 رجلا من الأنصار.

فكان أول المبايعين لرسول الله ﷺ يوم العقبة أبو الهيثم بن التيهان، وقال: "يا رسول الله إن بيننا وبين الناس حبالا[1] فلعلنا نقطعها ثم ترجع إلى قومك، وقد قطعنا الحبال، وحاربنا الناس فيك، فضحك رسول اللهﷺ من قوله، وقال: "الدم، الدم، والهدم الهدم"، فلما رضي أبو الهيثم بما رجع إليه رسول اللهﷺ من قوله أقبل على قومه فقال: يا قوم هذا رسول الله حقا، أشهد بالله إنه لصادق، وإنه اليوم في حرم الله وأمنه بين ظهري قومه وعشيرته، فاعلموا أنكم إن تخرجوه ترميكم العرب عن قوس واحدة، فإن كانت طابت أنفسكم بالقتال في سبيل الله وذهاب الأموال والأولاد فادعوه إلى أرضكم فإنه رسول الله حقا، وإن خفتم خذلانه فمن الآن. فقال عبد الله قبلنا عن الله وعن رسول الله، فخل بيننا يا أبا الهيثم وبين رسول الله فلنبايعه، فقال أبو الهيثم: فأنا أول من يبايع، ثم تتابعوا كلهم... ثم صدروا رابحين راشدين إلى بلادهم، وجعل الله عز وجل لرسوله وللمؤمنين ملجأ وأنصارا ودار هجرة "[2].

وكانت البيعة الثانية بيعة قتال بعدما كانت الأولى بيعة نساء، وذلك قبل أن يأذن الله تعالى لرسوله ﷺ في القتال، فلما أذن له ربه "بايعهم رسول الله ﷺ على حرب الأحمر والأسود، أخذ لنفسه واشترط على القوم لربه، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة"[3].

فلما رجع من بايع رسول الله ﷺ ليلة العقبة الثانية أظهروا الإسلام بها، ودعوا من كان على الشرك من شيوخهم، وبذلوا النفس والنفيس في الدعوة إلى دين الإسلام، حتى أسلم الكثير حتى من شيوخهم.

(1) والحبال: الحلف والمواثيق، مغازي ابن عقبة، ص91.

(2) مغازي ابن عقبة، ص92. سيرة ابن هشام، 2/ 320-325. البداية والنهاية، 2/ 167-172. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 1/ 273. زاد المعاد، 2/ 73.

(3) سيرة ابن هشام، 2/ 329.

5- الهجرة إلى المدينة وبناء كيان يحمي الدعوة وأتباعها:

لما انتشر الإسلام في المدينة بإسلام الأنصار (الأوس والخزرج)، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إليها، وقال: "إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها فخرجوا أرسالا"[1]، وأقام رسول الله ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة. حتى أذن له فهاجر هو وصاحبه ثاني اثنين في الغار أبو بكر الصديق ﷺ، فانتقلت الدعوة الإسلامية إلى طور آخر، ببناء كيان لها، ودولة تحميها وتذود عن حماها وأهلها.

فكانت الهجرة إلى المدينة ترتيبا للدعوة الإسلامية، وخروجا من بلد لا قوة فيه للإسلام إلى بلد يكون للإسلام فيه قوة ودولة، فما من المعقول أن ينفذ رسول الله ﷺ مبادئ الإسلام في مكة وهي في ظل الوثنية، ويحكمها مشركون، لذلك كانت الحاجة ماسة إلى الهجرة إلى بلد يكون فيه للدعوة دولة تحميها وتذود عنها.

فكانت الهجرة إلى المدينة، ووصلها رسول الله ﷺ في 12 من ربيع الأول من العام الأول للهجرة، فكان أول عمل قام به بناء المجتمع العمراني ودولة الإسلام على دعائم أربعة: 1-بناء المسجد روح الإسلام وعاصمته، 2-ثم وضع الصحيفة دستور المدينة التي تم بموجبها تنظيم المجتمع الإسلامي داخليا مع جميع طوائفه مسلمين وغيرهم، وخارجيا في حماية هذا المجتمع من كل اعتداء، 3-ثم الإخاء بين المهاجرين والأنصار، 4-تشكيل الجيش الإسلامي لحماية الدعوة وما تم اكتسابه، وتحقيق أهداف الدعوة المنشودة وتأمين طريق انتشارها، وفتح المجال للمستضعفين لاختيار العقيدة التي يرتضونها.

وهكذا نلاحظ الحكمة النبوية في الدعوة إلى الإسلام، وإلى دين العدل والسلام، وإلى جنات عرضها السموات والأرض، فكانت سنة التدرج في كل مراحل الدعوة من سريتها إلى الجهر بها، إلى دعوة القبائل، إلى الدعوة خارج مكة في الحبشة والطائف، إلى بناء الأمة والدولة فنشر الدعوة خارج مكة والمدينة وبث السرايا والبعوث والخروج في الغزوات لنشر الدعوة وتأمين طريقها وتعريف الناس عليها...

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 340. البداية والنهاية، 2/ 176. عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 1/ 286. مغازي موسى بن عقبة، ص99.

المحور الثالث

منهاج النبي ﷺ في تغيير ما بالأنفس

إن مراعاة التدرج كانت سمة لازمة للتربية النبوية للصحابة في مكة والمدينة، لأن تربية النفس الأمارة بالسوء وغسلها وتزكيتها وتطهيرها وتهذيبها حتى يزول ما علق بها من شرك وجبروت وآفات ليس بالخطب الهين، كما أن ما تجذرت عليه من مألوفاتها لا يمكن إزالتها في وقت وجيز، بل الأمر يحتاج إلى تدرج ومراحل عديدة.

فالتدرج لازم لتربية النفوس؛ إذ هو سنة من سنن الله في خلقه التي يجب مراعاتها والأخذ بها، فكما بدأت الدعوة النبوية -كما رأينا في المبحث السابق- بالتدرج عبر مراحل، فكذلك التربية والدعوة جزء منها، وهذا في غاية الأهمية؛ إذ لا يمكن أن نتصور تغييرا بين عشية وضحاها، فلو كان الأمر كذلك، لكان سيد الوجود ﷺ أولى به، وقد أخذ بسنة التدرج في كل أنواع الجهاد، من تربية ودعوة وقتال في سبيل الله وبناء المجتمع الإسلامي...

هذا فضلا على أن التربية تقوم بمعالجة أشخاص لهم ماض، وبيئة اجتماعية مفتونة، واستعدادات. هذه المعالجة تريد من المربي أو المصحوب أن يتدرج في التربية، وتريد منه حلما كثيرا وتؤدة، وصبرا طويلا، وتنويعا في الوسائل والأساليب، حتى تنضج الثمرة، ويشتد عود الغرس.

والله جل في علاه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وخلق الإنسان عبر أطوار نطفة فعلقة فمضغة...، وكذلك الحيوانات والأشجار والنباتات، ونزول الغيث... وكذلك نزول القرآن بالتدرج، وهو سبحانه تعالى وتقدس قادر على أن يقول لشيء كن فيكون، ومع ذلك كان الخلق في تدرج لينبهنا إلى أهمية هذه السنة الإلهية في الحياة، فالأمة المستخلفة في الأرض والمبشرة بالخير والمتطلعة إلى التمكين والظهور في الأرض لابد لها أن تسلك سبيل التدرج في كل شيء.

1-ولذلك مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما في مكة، وعشرة أعوام في المدينة يربي أصحابه على الإيمان والمحبة والبذل والتؤدة والجهاد... مراعيا سنة التدرج، وسنة الله في تغيير ما بالأنفس، فتدرجت التربية من صحبة النبي ﷺ، إلى تصحيح العقيدة والإيمان بكل أركانه، إلى ذكر الله وعبادته، إلى اختبار الصدق والإخلاص بالابتلاء، إلى البذل والسخاء والعطاء، إلى ربط العلم النافع بالعمل الصالح، إلى التميز عن المشركين والتخلي عن عادات الجاهلية مظهرا ومخبرا فكرا وأسلوبا وحياة وأخلاقا، والتحلي القلبي والعقلي بالقيم الإيمانية والأخلاق المحمدية، إلى تحمل الأذى في سبيل الله صبرا واحتسابا، إلى تجديد قصدٍ ومضاءٍ في الطريق، إلى عفاف وكفاف، إلى اكتمال الرجولة والجهاد والموت في سبيل الله، وهذا ما سنفصل فيه إن شاء الله.

1 - صحبة النبي ﷺ ومحبته:

لقد عمد النبي ﷺ إلى الذخائر البشرية وهي أكداس من المواد الخام لا يعرف أحد غَنَاءها، ولا يعرف محلها وقد أضاعتها الجاهلية والكفر والإخلاد إلى الأرض فأوجد فيها بإذن الله الإيمان والعقيدة وبعث فيها الروح الجديدة، وأثار من دفائنها وأشعل مواهبها، ثم وضع كل واحد في محله فكأنما خلق له، وكأنما كان المكان شاغرا لم يزل ينتظره ويتطلع إليه، وكأنما كان جمادا فتحول جسما ناميا وإنسانا متصرفا. وكأنما كان ميتا لا يتحرك فعاد حيا يملي على العالم إرادته، وكأنما كان أعمى لا يبصر الطريق فأصبح قائدا بصيرا يقود الأمم[1]؛ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام].

بهذا تربى الصحابة ﷺ في حضن الصحبة النبوية في دار الأرقم بن أبي الأرقم بمكة، وفي مسجد المدينة بعد الهجرة، يسقيهم زُلال محبة الله تعالى، ويتشربون منه محبته ومحبة بعضهم بعضا، فبالصحبة يبرأ العليل ويشفى الغليل ويبدأ التغيير.

والنصوص وحدها لا تصنع شيئا، وإن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلا، وإن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكا.

(1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن علي الندوي، ص155-156.

ومن ثم جعل سيدنا محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالا لا أن يلقي مواعظا، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطبا، وأن يبني أمة لا أن يقيم فلسفة. أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم، وكان عمل رسول الله محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدي وتراهم العيون.

فلما انطلق هؤلاء الرجال في مشارق الأرض ومغاربها، رأى الناس فيهم خلقا جديدا لا عهد للبشرية به .

ولقد انتصر سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصا، وحوَّل إيمانهم بالإسلام عملا، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفًا. ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق، إنما طبعها بالنور على صحائف القلوب[1].

إن الصحابة ﷺ لم ينشأوا تنشئة عفوية على بذل النفس والنفيس في سبيل الله، إنما تشربوا من معين الصحبة النبوية، وارتووا من نبعها، فكانوا رجالا تهابهم ملوك الدنيا وقياصرتها.

لقد كان الصحابة ﷺ أسعد الناس حظا بتربية النبي ﷺ وأقربهم منه في جميع الأحوال، ولهذا كانوا النواة الصلبة والأساس المتين الذي بني عليه صرح الإسلام وكيانه..

إن الصحابة ﷺ ما كانوا رحماء بينهم متحابين متصافين متآخين إلا بفيض صحبتهم للمصحوب الأعظم ﷺ ومحبتهم له، لقد أحبوه ﷺ محبة شديدة، وتشربوا من معينه الصافي، فأفاض الله عليهم من بركة محبته ما صيرهم إلى أن يفتدوه بالمهج، فكانت أخلاقهم قرآنية، وتربيتهم قرآنية، ومعاملتهم للناس قرآنية، ومعاشرتهم لأهاليهم قرآنية، وتربيتهم لأولادهم قرآنية، ومواقفهم قرآنية، فرضي الله عنهم جميعا، فما بلغوا ما بلغوا إليه إلا بالمحبة والصحبة وبها سموا صحابة.

فبصحبة رسول الله ﷺ ومحبته بدأ بناء الجماعة المسلمة القوية، محبة خالطت القلوب بشاشتها وحولت غلظة الأعراب رحمة ورقة.

(1) دراسات إسلامية، سيد قطب، ص27.

لا جرم أن المؤمنين الذين صحبوا الأنبياء واقتربوا من حياتهم أتيح لهم ما لم يتح لغيرهم من منابع الصفاء، ووسائل الارتقاء.

إن مشاعرك ترقى عندما تسمع النغم العذب، وعواطفك تسمو عندما تقرأ البطولة الرائعة، بل إن الذين يحضرون تمثيل بعض الروايات المثيرة يصبغهم جو القصة المفتعلة، فيضحكون، ويبكون، ويهدؤون ويضجون.. فما ظنك بقوم يتبعون رجلا تكلمه السماء، ويتفجر من جوانبه الكمال، ويسكب على من حوله آيات الطهر؟ فإذا ثقلت نفوسهم عن خير دفع بها إلى الأمام، وإذا علقت بمسالكهم شهوة نقاها فرد عليها سناءها. إن للعظماء إشعاعا يغمر البيئة التي يظهرون فيها، وكما يقترب المصباح الخامد من المصباح المشتعل فيضيء منه تقترب النفوس المعتادة من الفرد الممتاز، فتنطوي في مجاله، وتمشي في آثاره!!

وقد التف حول سيدنا محمد ﷺ فريق من الربانيين ا لأتقياء، كانوا له تلاميذ مخلصين، فزكت -بصحبته- نفوسهم، وشفت طباعهم، حتى أشرق عليها من أنوار الإلهام ما جعلها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب.

ولا تحسبن العقل الجبار -مهما أوتي من نفاذ- يستطيع إدراك الكمال بقوته الخاصة؛ فإذا لم تسدده عناية عليا فإنه سيجوب كل أفق دون أن يبصر غاية أو يهتدي طريقا، كالطيار الذي يضل في الجو عندما يتكاثر أمام عينيه الضباب، إنه يحكم القيادة، ويضبط الآلات، ويرسل أنوار مصابيحه في أحشاء الغيوم المتراكمة. فإذا لم يتلق إرشادا يحدد له مكانه ويعرفه كيف يهبط.. فإنه سيظل يحلق عبثا.. ثم تهوي به الريح في مكان سحيق[1].

وكان الصحابة ﷺ من أجل محبة ربهم ومحبة نبيهم وحبيبهم ومصحوبهم ﷺ، يترسون على رسول الله ﷺ في الحرب بأجسادهم، تقع السهام في نحورهم دونه ﷺ.

لقد كانت علاقتهم برسول الله ﷺ علاقة ملازمة ومصاحبة. طابعها التأسي والاقتداء به في القول والعمل، ومتابعة في السراء والضراء، والمنشط والمكره واليسر والعسر.

(1) فقه السيرة لمحمد الغزالي، ص200.

بفضل تلك الصحبة النبوية انتقلوا من التركيب الاجتماعي الجاهلي الذي يوالي الفُرقة والعصبية إلى عمران أخوي ومجتمع إسلامي، إلى بناء عضوي روحه المحبة وعموده الفقري وهيكله الطاعة لله تعالى ولرسول الأمين ﷺ.

تالله لقد فاز صحابة رسول الله ﷺ بشرف الدنيا والآخرة؛ إذ لهم معية مصحوبهم ومحبوبهم أوفر نصيبا، وأقرب مقاما، وأعظم منزلة، وقد قضى ربنا جل في علاه يوم قدر مقادير الخلائق بحكمته البالغة أن المرء مع من أحب، ومن أحب قوما حُشر في زمرتهم، فيا لها من سعادة أبدية، ونعمة خالدة، ومنة ربانية ونعمة إلهية.

فنخلص من ذلك أنه يجب على أمة الحبيب ﷺ أن يحبوا نبيهم أعلى درجات المحبة، لأن محبة النبي ﷺ هي مظهر محبة الله سبحانه وتعالى، فمن أحب مَلِكا أحب رسوله، ورسول الله ﷺ حبيب رب العالمين، وهو الذي جاءنا بالخير كله، وتحمل المتاعب من أجل إسلامنا ودخولنا الجنة.

2- الروح الجماعية:

كان المسلمون الأوائل يجتمعون خفية في دار الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ، وكان يجتمع فيها ما يقارب أربعين شخصا، وكلما دخل رجل في الإسلام إلا وُجه إلى هذا البيت الطاهر ليتلقى التربية الإيمانية وسط جماعة الصحابة ومن معينها النبوي بصحبة مباشرة للمصحوب الأعظم ﷺ، وفي ذلك المحضن التربوي التقى الفاروق عمر ﷺ عند إسلامه بجماعة المؤمنين الأولين، ليتشرب من الصحبة النبوية، ويرتشف من ضَرِبها.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد أمحزون: "ولا يتم معنى الجماعة إلا بالمفهوم الذي طبقه الرسول ﷺ مع أصحابه، حيث ألزمه الله عز وجل في مكة بالمؤمنين وألزمهم به، وجعل ولاءه وولاءهم لله، وخصَّهم وحدهم دون غيرهم بمحبته ورضاه، وأخذ يغرس في نفوسهم طاعة الله ورسوله، والاجتماع على ذلك، ومحبة المؤمنين ونصرتهم، وبغض الكفر والشرك وأهله"[1].

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص154.

وهكذا ربى النبي ﷺ أصحابه ﷺ على العمل الجماعي وعلى الروح الجماعية، فكانوا منسجمين ومرتبطين ارتباطا وثيقا قيادة وقاعدة، وأفرادا وجماعة، كما جاء في الحديث عن النُّعْمَانَ بْن بَشِير ﷺ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْو تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[1].

3- الإيمان الصحيح:

أ) تصحيح العقيدة:

لقد عني القرآن المكي أولا بإصلاح العقيدة، وذلك ببيان مقتضيات توحيد الله ﷻ، وتوحيد الأسماء والصفات، لأن المسلمين كانوا حديثي عهد بالجاهلية، لذلك فمن البعثة إلى هجرة سيدنا رسول الله ﷺ إلى المدينة والآيات تنزل لتصلح العقيدة وتخلصها مما علق بها من شوائب الجاهلية، حتى تتمكن القلوب من التوحيد الصحيح لله تعالى، وتطهر النفوس من أدران الوثنية والجاهلية.

ومن ثم، فإن أول عمل بدأ به ﷺ في تربية الوافدين والداخلين في الدين الجديد، هو تغيير النفس البشرية وما لصق بها من معتقدات وأفكار وتصورات... وتربيتها على التوحيد الخالص لله رب العالمين، بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالك كل شيء ومدبره، ومحيط بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء صغيرا كان أم كبيرا، ومنزه عن النقائص، وموصوف بالكمال، ومصدر كل خير ونعمة في هذا الوجود، وأنه يحصي أعمال بني الإنسان بواسطة كرام كاتبين حفظة، وأنه سبحانه ينصر من نصر دينه وتمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ، وأنه ﷻ يبتلي عباده المؤمنين بالبأساء والضراء ليختبر صدقهم وثباتهم، وأن الجنة حق والنار حق والبعث حق والحساب حق...، وأن الدنيا إلى زوال، وأن الآخرة هي دار الخلد... فتطهر الصحابة ﷺ من كل شائبة تخالف عقيدة التوحيد، وثبتوا أقدامهم في أرض الإيمان.

تربوا رضوان الله عليهم على كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، هذه الكلمة لم تكن مجرد كلمة تقال باللسان، ولا يمكن أن تكون كذلك في مرحلة من مراحل الدعوة، فضلا

(1) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ح6011.

عن مرحلة التأسيس التي هي أشق المراحل وأهمها؛ وإلا فما معنى تلك المعاناة القاسية التي لقيها المسلمون من المشركين وما موجبها؟! وإنما كانت هذه الشهادة نقلة بعيدة ومعلماً فاصلاً بين حياتين لا رابطة بينهما: حياة الكفر، وحياة الإيمان، وما يستلزمه ذلك من فرائض وتعبدات ومشقات أعظم وأكبر من فريضة الصلاة والزكاة ونحوها.

ولهذا، فإن توحيد الله تعالى هو الغاية التي خُلق من أجلها الإنسان، وهو الحقيقة الكبرى لهذا الكون، لذلك لم يكن من الصدفة أن يقضي رسول الله ﷺ بمكة ثلاثة عشر عامًا يحدث الناس عن قضية العقيدة، ويربي أصحابه على تجريد التوحيد، ورسخ في قلوبهم المعرفة الحقة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له، والطاعة المطلقة له، وعدم التقديم بين يديه، والرضا والتسليم بقضائه.

هكذا رسخ القرآن الكريم في قلوب الصحابة ﷺ العقيدة الصحيحة بهذا المفهوم، وآتت تربية رسول الله ﷺ لأصحابه ثمارها المباركة في هذا الجانب، فلم يحتكموا إلا لله، ولم يطيعوا ويتبعوا أحدا على غير مرضاة الله، ولم يوالوا ويعادوا إلا في الله، ولم يستغيثوا ويستعينوا إلا بالله، إلى غير ذلك من حقائق ومعاني هذا الأصل العظيم الذي قرره القرآن الكريم والسنة النبوية في الفترة المكية[1].

وبعد تربيتهم على هذا التوحيد الخالص انتقلت إلى أمور عقدية أخرى، كالإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر والحساب والجزاء والبعث والنشور، والقرآن ينزل في كل مرحلة يبين مقتضياتها والمطلوب فيها.

وهكذا بدأ النبي ﷺ "يبصرهم ويذكرهم برسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ما لهم عند الله، وما دورهم ورسالتهم في الأرض. وتأثرا بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم، وما في طاقتهم دون فتور أو توان، ودون كسل أو ملل، ودون خوف من أحد إلا من الله، ودون طمع في

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص26 وما بعدها بتصرف.

مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة"[1].

وبذلك الإيمان القوي والعقيدة الصحيحة، وبتلك الصورة الناصعة آتت العقيدة ثمارها المباركة في مواقف الصحابة وهديهم؛ فلم يخشوا إلا الله، ولم يتوكلوا إلا عليه، ولم يلتجئوا إلا إليه، وصدعوا بالحق في وجه الباطل لا يخافون لومة لائم؛ لأنهم علموا حق العلم أن كلمة الحق لا تقدم أجلاً ولا تؤخر رزقا.

تلك إذن، هي العقيدة الصحيحة التي تربى عليها الصحابة ﷺ في حضن الصحبة النبوية، والروح الجماعية، طوال ثلاثة عشر عامًا في مكة، وعشرة أعوام في المدينة، فكانت نتائجها باهرة، وشجرتها طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

ب) ذكر الله ﷻ:

ذكر الله تعالى هو مصب نهر الإيمان ومصدر نوره، وهو الوقود والزاد الذي يرفع الهمم ويشحذ الذمم نحو المعالي، ويطمئن القلب، قال الحق جل ذكره: ﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد].عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَمَرَّ عَلَى جَبَلٍ يُقَالُ لَهُ: جُمْدَانُ، فَقَالَ: "سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ". قَالُوا: وَمَا الْمُفَرِّدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ)"[2].

وعليه، فإن ذكر الله ﷻ هو العلاج الرباني والدواء القرآني لأمراض النفس البشرية، به تزكى النفوس وتحيى القلوب وتسمو روحانية العبد.

فبالذكر يرتفع الإنسان عن هذا العالم الترابي، وعن حطام الدنيا الفائت، ذلك أن الداء الذي يغتال أَمْنَ الناس، ويَقُضُّ مضاجعهم –ما يدخل عليهم من هموم الدنيا، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها.. وإنه لا دواء لهذا الداء، إلا باللجوء إلى الله، والفرار إليه، وتذكر سلطانه المبسوط في هذا الوجود، وأمره القائم على كل موجود.

---

(1) فقه النصر والتمكين، علي الصلابي، ص244.

(2) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى، ح6808.

ولهذا قام النبي ﷺ بتربية أصحابه ﷺ على ذكر الله تعالى والإقبال عليه، فزكى أرواحهم بأنواع العبادات والطاعات، كالتهليل والتسبيح والتحميد، وقيام الليل، والصلاة -فرائض ونوافل- وتلاوة القرآن، ومجالس الإيمان، والتأسي بأذكاره ودعواته ﷺ، والدعاء بآدابه، والصلاة عليه ﷺ، والتوبة والاستغفار، والخوف والرجاء، وذكر الموت، ومكارم الأخلاق، حتى تطهرت نفوسهم من أدرانها واتصلت بخالقها.

ج) الأخلاق الإسلامية:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ"[1].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول: "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة"[2]. وفي رواية: "وأن الله ليبغض الفاحش البذيء"[3].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: "تقوى الله وحسن الخلق. وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الفم والفرج"[4].

عن جابر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون" قالوا يا رسول الله: قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون"[5]. والثرثار هو الكثير الكلام، والمتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام ويبذو عليهم.

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، ح153. سنن النسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب ذكر شعب الإيمان، ح5005.
(2) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب حسن الخلق، ح2003، قال الألباني: حديث صحيح.
(3) سنن الترمذي، ح2002. قال الترمذي والألباني: حديث صحيح.
(4) سنن الترمذي، ح2004، قال الألباني: حديث حسن الإسناد.
(5) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب معالي الأخلاق، ح2004، قال الألباني: حديث صحيح.

إن الأخلاق هي عبارة روافد نهر الإيمان، بها يكتمل، وبها يكون المسلمون خير أمة أخرجت للناس. ولقد ربى النبي ﷺ صحابته على الأخلاق العالية، فكانوا رحماء بينهم، شيمتهم العفو والسماحة، والرفق والرحمة، وحب الخير لخلق الله جميعا حتى لأعدائهم، لا يؤذون أحدا، ولا يخوضون في عرض أحد، ولا يسبون أحدا، ولا يتهمون أحدا، ولا يتتبعون عثرات أحد، ولا يكفرون أحدا...! كان جل كلامهم الخير والذكر وقول الحق، يميطون الأذى المادي والمعنوي من طريق الناس، وييسرون لهم السبل إلى ربهم، كانوا يقولون في الخير «نحن» لا «أنا» لم يكونوا أنانيين، ولا مصلحيين، ولا متعصبين، ولا عنصريين، ولا متكبرين، بل كان الواحد منهم يفرح بتوبة التائب... وبحسن خلقهم دانت لهم الرقاب ودانت لهم البقاع ودان لهم ملوك الأرض وجبابرتها وقياصرتها.

إن الأخلاق هي جوهر رسالات السماء على الإطلاق؛ وإن من أهم مقاصد البعثة إتمام صالح الأخلاق ومكارمها وبناء صرحها ودعامتها، وإشاعة روحها في نفوس الأفراد والأسر والمجتمعات، والعمل على تقويمها «إنما بُعِثت لأتمِّم صالح الأخلاق»[1]. بل إن الهدف الأساس من كلِّ رسالات السماء هدف أخلاقي. وبقاء الأمم واستمرارها مرتبط بأخلاقها، إن صلحت بقيت وعزت واستمرت، وإن فسدت فنيت وذلت وذهبت. وإذا أصيبت أمة في أخلاقها فكبِّر عليها أربعا لوفاتها! وإذا أصيبت أمة في أخلاقها فنبئها عن قرب زوالها!

4- الصدق في القول والعمل:

بالصدق يعرف المنافق من المخلص الصادق، والصدق خروج عن خصال النفاق. ولهذا ربى النبي ﷺ أصحابه على هذه الصدق الجامع لمكارم الأخلاق، صدق مع الله وصدق مع الناس. وصدق في القول والعمل.

فالصدق برهان المحبة والإيمان، ولنا في المهاجرين إلى الحبشة والمهاجرين من بعدهم إلى المدينة أنموذجا كاملا معبرا عن حقيقة الصدق.

(1) مسند احمد بن حنبل، 2/ 381. قال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

والصدق منجاة، ونتائجه حميدة، وقد رأينا صدق أولئك المهاجرين إلى الحبشة لما سألهم النجاشي عن قولهم في المسيح عيسى عليه السلام، فبينوا موقف الإسلام في ذلك دون محاباة أو تمويه لبطارقة النجاشي وللنصرانية السائدة في الحبشة آنذاك التي تخالف عقيدة الإسلام في ذلك، بل قالوا كلمة الحق، ولم يخافوا في الله لومة لائم، صدقوا الله فصدقهم الله، فآمنهم من مكر الماكرين وكيد الكائدين، وأحسن لهم ثوابهم في الدنيا والآخرة.

وهذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لُقِّب بالصِّدِّيق لصدقه وتصديقه لمن جاء بالصدق ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ [1] أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزمر].

أضف إلى ذلك المهاجرين إلى المدينة، فكانت الهجرة تمحيصا واختبارا لصدق إيمانهم وحبهم لنبيهم ونصرتهم لدينهم، وبذلهم الغالي والنفيس في سبيل عقيدتهم.

وصدق الحق جل ذكره الذي قال في أولئك الرجال الذين تربوا في حضن الصحبة النبوية، وارتشفوا من أصلها الصدق والإخلاص: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

5- السخاء والعطاء:

إن السخاء يجمع كل معاني الإنفاق[2] التي وردت في القرآن الكريم؛ إذ الإنفاق شرط أساس في كمال الإيمان، وعليه، فإن السخاء هو البرهان الأول للصدق، ولذلك تلقى الصحابة رضي الله عنهم تربية راقية على البذل والعطاء والكرم والسخاء والإحسان إلى الناس، أزالت من نفوسهم شح النفس الفردية وضنها، فتخلصوا من تلك الأمراض كلها، وبذلوا أموالهم في سبيل إعزاز الدين، وإعلاء كلمة الحق.

---

(1) أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره ، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره. تفسير السعدي، 1/ 724.
وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَة: "الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ مُحَمَّد، وَصَدَّقَ بِهِ أَبُو بَكْر. فتح الباري، 8/ 437.

(2) كالزكاة والصدقة، والكرم وإيتاء ذي القربى واليتامى والمساكين، وإطعام الطعام...

فهذا سيدنا أبو بكر ﷺ حرر العبيد الذين لهبت ظهور هم عصا الابتلاء والفتنة، أعتق بلالا لما أسرف بنو جُمح في تعذيبه وإيذائه، وأعتق أَمَّه حمامة، كما أعتق عامر بن فهيرة، وأم عُبيس، وزنِّيرة، والنهدية وابنتها، وجارية بني مؤمل وغيرهم.

حتى قال له أبوه أبو قحافة: "يا بني أراك تعتق قوما ضعافا، فلو أعتقت قوما جلداء يمنعوك، فقال: يا أبت إني أريد ما أريد. [يعني: أريد الله]، فقيل فيه نزلت: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل]، إلى آخر السورة"[1].

كما بذل سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ كل ماله لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة. فعن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ﷺ قال: " أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَتَصَدَّقَ فَوَافَقَ ذَلِكَ عِنْدِي مَالاً، فَقُلْتُ الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ إِنْ سَبَقْتُهُ يَوْمًا قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟". قُلْتُ:مِثْلَهُ وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ: "يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟". قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. قُلْتُ وَاللَّهِ لاَ أَسْبِقُهُ إِلَى شَيءٍ أَبَدًا"[2].

كانوا ﷺ يتسابقون إلى الخيرات، وإلى البذل في سبيل الله، لا إلى حطام الدنيا الفاني، ونعيمها الزائل.

وهذا سيدنا عمر ﷺ ينفق نصف ماله في سبيل الله، وذاك سيدنا عثمان المعطاء يجهز جيش العسرة[3]، مباشرة لما سمع نداء الحبيب الأعظم ﷺ: ""مَنْ يُجَهِّزْ هَؤُلاَءِ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ". يَعْنِى جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَجَهَّزْتُهُمْ حَتَّى لَمْ يَفْقِدُوا عِقَالاً وَلاَ خِطَامًا"[4]. سارع إلى رضوان الله ومغفرته وفضله.

أما المهاجرون إلى الحبشة وإلى المدينة فقد تركوا أموالهم وأهلهم ورحلوا بإيمانهم ومحبتهم لنبيهم ﷺ، وجعلوا أنفسهم وأموالهم وقفا لله.

(1) عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 1/ 203.
(2) سنن الترمذي، كتاب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في مناقب أبي بكر، ح3684. قَالَ أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.
(3) وسيأتي الحديث عن ذلك في بابه.
(4) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيا، ح3182.

فهذا سيدنا صهيب الرومي ﷺ لما اعترضه كفار قريش وأرادوا أن يمنعوه من الهجرة إلى المدينة -لما أمر النبي ﷺ بالهجرة إليها-، قالوا له: "أتيتنا صعلوكا حقيرا، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك؛ فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلت لكم مالي. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: "ربح صهيب ربح صهيب""[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: "أَنَّ رَجُلاً أَتَى النبي ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِه، فَقُلْنَ مَا مَعَنَا إِلاَّ الْمَاءُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "مَنْ يَضُمُّ، أَوْ يُضِيفُ هَذَا". فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ أَنَا. فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلاَّ قُوتُ صِبْيَانِي. فَقَالَ هَيِّئِي طَعَامَكِ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ، وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً. فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا، وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ، فَجَعَلاَ يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلاَنِ، فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ ، غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: "ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ -أَوْ عَجِبَ- مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿...وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]""[2].

وهذا سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان لا يسمع آية من كتاب الله تعالى تدعو إلى البذل في سبيل الله، إلا وسارع إلى تنفيذها، منفقا في سبيل الله الغالي والنفيس، عن نافع قال:"عن ابن عمر أنه كان لا يعجبه شيء من ماله إلا خرج منه لله عز وجل قال: وربما تصدق في المجلس الواحد بثلاثين ألفا"[3]، وعنه أيضا"ما مات ابن عمر حتى أعتق ألف إنسان"[4].

أضف إلى ذلك أن النبي ﷺ لما أعلن الإخاء بين المهاجرين والأنصار، تكافلوا بينهم في كل حاجة من حاجيات الحياة، فأغدق الأنصار على إخوانهم من المهاجرين بالخيرات،

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 348.
(2) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ح3798.
(3) صفة الصفوة، 1/ 220.
(4) صفة الصفوة، نفس الجزء والصفحة..

فكانوا يتوارثون بينهم، حتى نزلت آية التوارث التي خصته بالعصبة، لكن التآزر والمواساة والتعاون استمر بين المسلمين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَتِ الأَنْصَارُ للنبي ﷺ: "اقْسِمْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلَ. قَالَ: لاَ. فَقَالُوا: تَكْفُونَا الْمُؤُونَةَ وَنُشْرِكُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ. قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا"[1]. وعن أنس ﷺ قال: "قال المهاجرون : يا رسول الله، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير، لقد كَفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كله. قال: "لا، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله عز وجل لهم""[2].

وصور البذل والسخاء والعطاء عند هؤلاء الرجال العظماء لا تنتهي، لأنهم تربوا في حضن الصحبة المصطفوية المحمدية.

6 - ربط العلم[3] النافع بالعمل الصالح:

أ- العلم النافع:

إن القرآن الكريم والسنة النبوية أشادا بالعلم وجعلاه من أعظم القربات، وأرفع الحسنات، وأكدا أنه الطريق الأرحب لرفعة الدنيا وعز الآخرة، كما قال تعالى: ﴿...يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾[المجادلة].

ولكن العلم إذا لم يدل على الله، ويحسن سلوك الإنسان، ويضبط حياته بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ويدفع الناس في طريق الخير... فما قيمته؟ إن العلم النافع هو الذي يضيف للحياة نفعا، للخلائق والكائنات فائدة، وليس هو القراءة والكتابة فحسب، إنه ترق دائم وإضافة خيرة مستمرة...

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المزارعة، باب إذا قال اكفني مؤونة النخل وتشركني وغيره وتشركني في الثمرة، ح2325.

(2) مسند الإمام أحمد، مسند المكثرين من الصحابة، مسند أنس بن مالك ﷺ، ح13097.

(3) "العلم في لغة القرآن والسنة وعند أهل الله: ما وصَّل إلى الله، وكل معلومة لا توصل إلى الله فليست بعلم، فعِلْمُنا دائما كان مقيَّدًا بعمارة الأرض وبعبادة الله، والعلوم لا تقتصر على الفقه والشريعة إلى آخره، بل الله قد قدم قراءة الكون على قراءة كتابه المذكور؛ فإن الكون أسبق من القرآن".

فإذا لم يُصلح العلم الحياة ويرقيها، وينظمها ويجملها ويجعلها سهلة ميسرة فما قيمة هذا العلم؟!

فإذا لم ينفع العلم ولم يتأثر الإنسان به فَقَدَ القيمة عند صاحبه فلم يعد يتأثر به القلب، ولم يكبح جماح النفس ويردها عن نزواتها ونوازعها فيصبح جراء ذلك عمل الإنسان صورا لا يمتد في الأرض، ولا يصعد إلى السماء؛ ولهذا فقضية العلم جد خطيرة في حياة الأمم، وكم مر على هذه الأرض من أمم أصبح العلم فيها مظهرا دون جوهر، وهيكلا لا روح فيه، فانهارت الأمم وأصبحت أثرا بعد حين، ولهذا لابد أن يكون العلم نافعا وثيقا بصلاح الإنسان في معاشه ومعاده، في نفسه وأسرته ومجتمعه، ولابد من تأطيره بإطار سديد، وتوجيه قويم رشيد[1].

إن العلم هو أمضى سلاح بعد الإيمان، وهو السراج المضيء للطريق، ودليل العمل الصالح، والعلم ما قربنا إلى الله تعالى وبصرنا بمصيرنا إليه، ورسخ أقدامنا في الشريعة الغراء، ودلنا على واجبنا ورسالتنا في هذه الحياة، وهو نور في قلب من أيده الله بمدده وفتح له بصيرته، ثم تأتي العلوم الكونية تباعا لأنها تدعونا إلى التدبر في ملكوت الله.

وليس العلم ما انتكست فيه الإرادة، وقل الفهم، وتكدست فيه النقول، إنما العلم النافع الذي تربى عليه الصحابة ﷺ في المدرسة النبوية، هو ذلك العلم الذي يبني أمة وينظم المجتمع ويقيم العدل فيه، ويعيد الوعي في عقل المؤمن، ويعيد كل معرفة كونية إلى منبعها وأصلها بعلم الحق...

ولأهمية العلم في التربية والسلوك تلقى الصحابة ﷺ التربية عليه من المصحوب الأعظم والحبيب الأكرم ﷺ؛ ولذلك لما أسلم أولئك النفر من الخزرج وبايعوا رسول الله ﷺ -بيعة العقبة الأولى- بعث معهم مصعب بن عمير ﷺ، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين.

(1) "عقبات في طريق البناء"، مقال لفاروق حمادة، مجلة بصائر الرباط، ص25-27، باختصار.

وبعث سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري -رضي الله عنهما- إلى اليمن ليعلما الناس الإسلام، ويُفقهوهم في الدين، وأوصاهما بسنة التدرج والتيسير. فعَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النبي ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا وَأَبَا مُوسَى إِلَى الْيَمَنِ قَالَ: "يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا"[1].

ولما دخلت فاطمة بنت الخطاب وبعلها سعيد بن زيد -رضي الله عنهما- في الإسلام كان سيدنا خباب يقرئهما القرآن[2].

وذلك يدل على أهمية العلم والمعلم في التربية والسلوك، فالله يعبد بعلم، والاقتداء بنبيه الكريم ﷺ يكون بعلم، وتطبيق شريعته يكون بعلم..

وفي العقبة الثانية لما بايع الأنصار النبي ﷺ قال لهم "أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبا، يكونون على قومهم بما فيهم". فأخرجوا اثني عشر نقيبا، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس"[3].

فقال النبي ﷺ للنقباء: "أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي"، قالوا: نعم"[4].

فهؤلاء النقباء كفلاء، في تعليم أصحابهم، وتوجيههم، ومساعدتهم، والاهتمام بشئونهم، وقضاء حوائجهم...

ويحكي سيدنا عبادة بن الصامت ﷺ عن أهل الصفة[5] الذين تفرغوا للعلم، واعتكفوا في المسجد النبوي للعبادة وقراءة القرآن ومدارسته، يقول ﷺ: "علمت ناسا من أهل الصفة القرآن والكتابة، فأهدى إلي رجل منهم قوسا، فقلت ليست بمال، وأرمي

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف، ح 3038.
(2) انظر: عيون الأثر (تحقيق: الخطراوي ومتو)، 1/ 219. وسيرة ابن هشام، 1/ 240.
(3) تاريخ الطبري، 1/ 578. الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص31. سيرة ابن هشام، 1/ 321.
(4) تاريخ الطبري، 1/ 578.
(5) الصفة: مكان في مؤخر المسجد النبوي مظلل أعد لنزول الغرباء فيه ممن لا مأوى له ولا أهل، وكانوا يكثرون فيه ويقلون بحسب من يتزوج منهم أو يموت أو يسافر. فتح الباري، 6/ 666.

عنها في سبيل الله. فسألت رسول الله ﷺ عنها فقال: "إن سرك أن تطوق بها طوقا من نار فاقبلها"[1]، وعنه أيضا قال: "كان رسول الله ﷺ يُشغل، فإذا قدم رجل مهاجر على رسول الله ﷺ دفعه إلى رجل منا يعلمه القرآن، فدفع إلي رسول الله ﷺ رجلا وكان معي في البيت أعشيه عشاء أهل البيت، فكنت أقرئه القرآن..."[2].

وقد كان هدي النبي ﷺ في التعليم: بتوجيه الهمم والعزائم إلى عوالي الأمور، ومعالي المقاصد، وأن يكون المؤمن عالي الرأس في غير كبر، وعزيز النفس في غير عجب، وأصيل الرأي في غير أنفة.

كما اعتنى ﷺ "بتعليم القرآن عناية عظيمة خصوصا بالنسبة للصبيان الصغار، ولا شك أن في ذلك فائدة كبرى وهي لأجل أن يتوجه الصغار إلى اعتقاد أن الله هو ربهم، وأن هذا كلامه تعالى، ولأجل أن تسري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم، ولأجل أن يتلقن الطفل عقائد القرآن منذ الصغر، وأن ينشأ ويشب على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على منهاجه.

وكان الصحابة ﷺ أول من قرأ في مدرسة القرآن وتربى بهديه واهتدى بتربيته واتخذه هجيره، فقرؤوه وتعلموه وعلموه، وقد كان النبي ﷺ يعلمهم مع القرآن آداب القرآن الكريم ليعرف حقه فيعظمه ويحترمه.

إضافة إلى ذلك ومما كان يعتني به في حلقة العلم النبوية تفسير كتاب الله العظيم، فقد كان المصطفى ﷺ يفسر لهم بنفسه بعض آيات القرآن الكريم.

كما اعتنى ﷺ في تعليم أصحابه بذكر الوقائع التاريخية، وسنن الله في الأمم الغابرة، "وهذه السنة المحمودة أعظم عامل لتشويق النفوس إلى مجالس العلم والتذكير وإقبالهم عليها برغبة وتعلق.

(1) سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب الأجر على تعلم القرآن، ح257، قال الألباني: صحيح، سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في كسب المعلم، ح3416.

(2) مسند الإمام أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت ، 5/ 324.

ومن الطرائق التي سلكها ﷺ في تربية وتعليم أصحابه ضرب الأمثال، فكان يقرب المسائل بالأمثال، "والمثل من أوضح السبل وأظهرها في تصوير الحقيقة وتوضيحها وتقريبها إلى ذهن السامع"[1].

وهنا لابد أن نذكر حديثا رائعا نلمح منه وسيلة من وسائل التربية التعليمية النبوية للصحابة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "خَطَّ النبي ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وَخَطَّ خَطًّا فِي الْوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُطُطًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الذي فِي الْوَسَطِ، مِنْ جَانِبِهِ الذي فِي الْوَسَطِ وَقَالَ: "هَذَا الإِنْسَانُ ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ -أَوْ قَدْ أَحَاطَ بِهِ- وَهَذَا الذي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطُطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا"" [2].

وأما الكتابة فقد اعتنى بها اعتناء كبيرا؛ ولذلك فإن تطوير فن القراءة والكتابة وترويجهما وإشاعتهما، وإيلاءهما اهتماما كبيرا مع نشر دعوة الإسلام إنما يعتبر من أهم البركات الدنيوية التي أفاض بها الإسلام على الناس جميعا، وهو الجميل العظيم والمن الكبير الذي أسداه الإسلام إلى البشرية جمعاء. وخير دليل على ذلك ما حدث يوم بدر، حيث أمر الرسول ﷺ للأسرى الذين لم يجدوا ما يفتدون به أنفسهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، كما أن أصحاب الصُّفة الذين بلغ عددهم مئة شخص كانوا يركزون على جانب القراءة والكتابة ويتعلمونها، وكانوا يتعلمون الدين والأحكام الشرعية"[3]. ويكفينا فخرا أن أول ما نزل على نبينا ﷺ من القرآن قوله سبحانه وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق].

علاوة على أن أسمى الطرائق التربوية النبوية أنه ﷺ كان يولي السائل عناية ورعاية خاصة وتقديرا واحتراما وإكراما وإعظاما، فيكسبه بذلك ثقة كبيرة وشعورا بالطمأنينة الكاملة بحيث لا تمنعه هيبة النبي ﷺ العلمية من إلقاء السؤال على أي كيفية، ولا تصده رتبته ﷺ عن التعبير بما في مكنونات الضمير ملقيا بقياده ساعيا في طلب رشاده، وأنظار حضرة المربي الكامل ﷺ تحوطه من كل جانب، وتحميه من كل منتقد أو عائب[4].

(1) محمد ﷺ الإنسان الكامل، محمد السيد علوي المالكي الحسني، ص218 وما بعدها.
(2) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، ح6417.
(3) سيرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ص56.
(4) محمد ﷺ الإنسان الكامل، ص228.

واختلفت وسائل التعليم النبوية، فقد يكون التعليم عن طريق سؤال يوجه للنبي ﷺ فيجيبه، أو يسألهم هو لا ليجيبوه، بل ليشوق السامع ليصغي بقلبه وأذنه إلى الإجابة، كما كان يخاطب الناس على قدر ما تستوعبه عقولهم وأفهامهم، وإذا تكلم أعاد الكلام ثلاثا ليفهمه الجميع وليستوعبوه.

واهتم النبي ﷺ بتعليم المرأة كما اهتم بتعليم الرجل، وكان من الصحابيات من يحضرن مجالس العلم في المسجد النبوي، حرصا منهن على تلقي العلم من فيه سيد الوجود ﷺ، أشهرهن أم المؤمنين النقية الجليلة الفقيهة العالمة الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق رضي الله عنهما، التي كانت تفتي الصحابة وتجيبهم على أسئلتهم، واشتهرت برواية حظ وافر من الأحاديث النبوية الشريفة، إلى غير ذلك من الصحابيات اللائي اشتهرن بالعلم وأخرج لهن أصحاب الحديث في كتبهم وكذلك أصحاب المغازي والسير.

ومما سبق ذكره يتضح لنا جليا المنهاج النبوي في التعليم والحض على العلم، ذلك المنهاج الذي لم يترك مجالا من مجالات الحياة إلا عني بها، وأولاها اهتمامه، واتخذ في ذلك طرقا ووسائل متنوعة، على نورها يتم إرساء أسس معرفة صحيحة تتوج بالعمل الصالح، لقوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ [التوبة]. ذلك العمل الذي أسهم في بناء ذلك المجتمع العمراني الإسلامي الأخوي الراقي.

وبهذا وبفضل الصحبة النبوية تعلَّم المسلمون، وتسابقوا إلى طلب العلم، حتى انتشر العلم انتشارا واسعا، فقام صرح ذلك المجتمع الإسلامي الخالد الذي تلقى توجيهاته من معين النبوة، وتشرب التربية من منبعها النبوي، فكانت نتيجة ذلك الفتح المبين والظهور في الأرض، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

ب-العمل الصالح:

لقد اهتم النبي ﷺ بالعمل[1] اهتماما بالغا؛ لأن الإسلام يربط بشكل مستمر بين العلم والعمل، وهذا العمل يعني كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان في حياته ويقصد بها وجه الله

(1) أي العمل بنوعيه: العمل العبادي بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية، والعمل المنضبط المنتج المنظم الدائب.

تعالى ونفع الناس ودفع الأذى عنهم، وجلب المصالح والمنافع لذاته ولأهله ولكل من هو مسئول عنه. وكل عمل يشمل على ذلك فإنه يندرج تحت مفهومي العبادة والتقوى.

ولقد حض النبي ﷺ أصحابه على العمل الصالح، فاستجابوا له، لأنهم يتلقون التربية من المصحوب الأعظم ﷺ، وهذه سنة الله في التابع والمتبوع، والصاحب والمصحوب، فما كانوا رجال تأمل وركون إلى الراحة والكسل، بل كانوا رجال عمل دائب مستمر منضبط منتج منظم.

وإن جوهر الأمر، أن العمل يحيي القلوب بالمعرفة واليقظة الدافعة، لكن العمل الذي يحيي القلوب هو ذلك العمل البعيد عن الشرة والحماس والحركة الفارغة من اللب، والسباحة في سماء الأحلام، والقفز فوق الواقع.

إن العمل الذي يباركه الله تعالى ويؤيد عباده المجاهدين بالغيب به، ويبارك لهم في أرزاقهم، والذي ربى النبي ﷺ عليه ذلك الجيل الخالد ﷺ، هو ذلك العمل الذي يكون التدرج حليفه، والصبر جماله، والتعاون قاعدته، وتحمل المسؤولية وإسعاد الأمة حافزه، والإخلاص لله تعالى روحه.

7- الصبر وتحمل الأذى:

إن من أساليب تغيير النفس التي سلكها النبي ﷺ في تزكية نفوس أصحابه ﷺ: الصبر على طول الطريق ومشاقه، وتحمّل الأذى في سبيل الله، حتى يتحقق وعد الله ونصره. بعيدا عن الارتجالات العنترية، والأماني المعسولة، والفشل الدائم.

وتتضح تربية النبي ﷺ لأصحابه على الصبر وتحمل الأذى في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن خباب بن الأرت ﷺ قال: "أَتَيْتُ النبي ﷺ وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَة، وَهْوَ فِي ظِلِّ الْكَعْبَة، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً فَقُلْتُ: أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ وَهْوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ:"لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ الْمِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ، مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ"[1].

(1) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة، ح3852.

ورُغم كل الأذى الذي كان ينزله كفار قريش بالمؤمنين لم يهن من عزمهم، ولم يضعف أنفسهم، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يضربونه، فيستمر في قراءته، وهم يستمرون في ضربه حتى يبلغ ما شاء الله تعالى أن يبلغه غير ملق اهتماما إلى ضربهم.

أما آل ياسر ﷺ وهو البيت الذي أسلم كل أفراده، وآمن بالله تعالى وفيه ضعف من المال والجاه وناله ضعف الرق، فرأس الأسرة ياسر، وهو أبو عمار عُذِّب، وأمه سمية عُذِّبت، وذهب الفجور بأبي جهل أن يضربها برمح في بطنها فماتت، فكانت أول شهيد في الإسلام مات فداء لدينه.

وتحمل سيدنا عمار ﷺ أشد الأذى والعذاب، فما وهن وما استسلم لجحافل الشرك، بل رضي وقلبه مطمئن بقضاء الله وقدره، وإن نطق بكلمة لما بالغوا في تعذيبه وإيذائه، لكن قلبه مطمئن بالإيمان.

وتحمل سيدنا مصعب بن عمير ﷺ الذي كان يكتم إسلامه، فلما علم به قومه "حبسوه فلم يزل محبوسا حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى، ثم خرج في الهجرة الثانية. وكان من أنعم الناس عيشا قبل إسلامه، فلما أسلم زهد في الدنيا فتحسف[1] جلده تحسف الحية"[2].

كان ﷺ قبل أن يدخل الإسلام "من أنعم قريش عيشا، وأعطرهم، وكانت أمه شديدة الكلف به وكان يبيت وقعب[3] الحيس [4] عند رأسه يستيقظ فيأكل، فلما أسلم أصابه من الشدة ما غير لونه، وأذهب لحمه، ونهك جسمه، حتى كان رسول الله ﷺ ينظر إليه وعليه فروة قد رفعها، فيبكي لما كان يعرف من نعمته، وحلفت أمه حين أسلم وهاجر ألا تأكل ولا تشرب ولا تستظل بظل حتى يرجع إليها، فكانت تقف للشمس

(1) تَحَسَّفَ الجِلْدُ: تقشّر. لسان العرب، مادة: حسف.
(2) صفة الصفوة، 1/ 151.
(3) القَعْبُ: القَدَحُ الضَّخْمُ الجافي، أو إلى الصِّغَرِ، أو يُرْوي الرَّجُلَ، ج أَقْعُبٌ وقِعابٌ وقِعَبَةٌ. القاموس المحيط، باب الباء، فصل العين، ص153.
(4) الحَيْس: الخَلْطُ، وتَمْرٌ يُخْلَطُ بِسَمْنٍ وأَقِط، فَيُعْجَنُ شديداً، ثم يُنْدَرُ منه نَواهُ، ورُبَّما جُعِلَ فيه سَويقٌ، وقد حَاسَهُ يَحيسُهُ، القاموس المحيط، باب السين، فصل الحاء، ص564.

حتى تسقط مغشيا عليها، وكان بنوها يحشون فاها بشجار وهو عود فيصبون فيه الحساء[1] لئلا تموت"[2].

ولقي المسلمون من مشركي قريش من الأذى عظيما، ورزقهم الله من الصبر على ذلك عظيما، ليدخر لهم ذلك في الآخرة، ويرفع به درجاتهم في الجنة. والإسلام في كل ذلك يفشو ويظهر في الرجال والنساء.

كان يزيدهم رضوان الله عليهم الإيلام المستمر إيمانا ويقينا، واستمساكا قويا بدينهم، فتحملوا وصبروا وصدقوا، لأنهم تربوا في حضن الصحبة النبوية، وفي مدرسة التربية في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

كان النبي ﷺ يربيهم على تحمل الأذى صبرا واحتسابا، ويثبتهم عند الشدائد، ويواسيهم ويوصيهم بالصبر والتحمل، ويبشرهم بالدرجات العلى وجنات النعيم، ويلقي في قلوبهم ببيان أن الإيمان يوجب الصبر وتحمل المشاق، وأن ثواب الآخرة ثمنه من تحمل ما يقتضيه الحق في الدنيا، وببيان أن الله تعالى ناصر عباده المؤمنين بعد أن يبلو إيمانهم ويظهر صبرهم وفق سنته الثابتة، كما كان يقول لآل ياسر: "صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة".

هذا، والقرآن ينزل ويحضهم على الصبر ويذكرهم بقصص السابقين الذين تحملوا الأذى وصبروا، حتى أتاهم نصره، فنزلت سورة الكهف التي تقص عليهم قصة أهل الكهف[3] أولئك الفتية الذين ثبتوا على دينهم وصبروا على الإيذاء والابتلاء، وأووا إلى الكهف فرارا بدينهم، "ولكأن القرآن الكريم يجيء بهذه القصة، وتتنزل آياتها على جماعة المسلمين، وهم في مكة يلقوْن ما يلقوْن من عَنَتٍ وكيد وبلاء في سبيل عقيدتهم -لكأن القرآن إنما يجيء بهذه القصة في هذا الوقت ليربط على قلوب تلك الجماعة القليلة المستضعفة

(1) الحَسَاءُ: مثل سَلام الطبيخ الرقيق يحسى. المصباح المنير، كتاب الحاء، مادة: حيس، ص85.

(2) الروض الأنف، 2/ 252.

(3) إن القصة هي أفضل وسيلة لتربية النفس البشرية، وتهذيبها، وتطهيرها مما علق على مشجبها من الآفات والعاهات والعلل، وإذا أحكمت صورتها وأحداثها كان لها تأثير قوي في التربية، ولهذا عني بها القرآن الكريم اعتناء كبيرا، لما فيها من العبر والعظات تنفع السالك إلى ربه المجاهد في سبيل الله، الحامل للواء الدعوة إلى الله.

من المؤمنين، وليريَهم مثلا طيبًا للمؤمنين الذين يسكن الإيمان قلوبَهم، ويملأ مشاعرهم، استجابة لدعوة الفطرة من غير نبيّ ولا كتاب.. ثم لكأن فيما اتجه إليه أصحاب الكهف من الهجرة بدينهم، إشارة واضحة إلى منافذ الفَرَج والخلاص، من مواطن الكيد والبلاء، بالتحول من دار إلى دار، والانتقال من بلد إلى بلد!!"[1].

ونزلت كذلك سورة البروج التي تقص عليهم قصة أصحاب الأخدود[2] الذين ابتلوا ابتلاء عظيما وأحرقوا في أخاديد...ونزلت آيات كثيرة تواسيهم وتحضهم على الصبر، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، وحتى تتحقق سنة الله في الكافرين الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات عن دينهم، نحو قوله جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج]، هذا توعد من الله تعالى لأهل الكفر والضلال، الذين فتنوا المؤمنين في دينهم، وآذوهم، وصدوهم عن دينهم، بالعذاب الشديد.

وهكذا مضت الآيات القرآنية تذكرهم بسنة الله في الدعوات وفي الرسل وأتباعهم، وأنهم ليسوا وحدهم من تعرض للابتلاء، بل كل من قال ربي الله ونبيي رسول الله ﷺ ابتلي وامتحن، حتى يتبين صدق إيمانه.

---

(1) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، 3/ 599.

(2) قصة أصحاب الأخدود أوردها مسلم في صحيحه والترمذي في سننه من حديث سيدنا صهيب مطولة، ومجملها قصة ذلك الغلام الذي كان يتعلم من الساحر، فذات يوم مر براهب فتابعه على دينه، فأراد الملك قتل الغلام لمخالفته، فقال له الغلام لا تستطيع إلى ذلك سبيلا،"حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِه. قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ : تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِد، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ.ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِه، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِه فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.
فَأُتِيَ الْمَلِكُ، فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ، قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِه فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا: الْغُلَامُ يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ". انظر: صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقاق، باب قصة أصحاب الأخدود والساحر، ح75011 (3005)، سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة البروج، ح3340.

لقد كانت عصا الأذى تلهب ظهر الضعفاء، فكان لها أنين، وشكوى، وسمع النبي ﷺ أنينهم، فكان له ألما ممضا، وشكوا إليه فأشكاهم بالصبر وبشرهم بالجنة.

ولما هاجر أصحاب النبي ﷺ إلى المدينة أصيب الكثير منهم ببلاء وسقم؛ لأن المدينة كانت أوبأ أرض الله بالحمى، فصبروا وتحملوا حتى أجهدتهم الحمى فدعا النبي ﷺ ربه فصرف عنهم ذلك.

من هنا كانت التربية على الصبر هي الوسيلة الناجعة لتجاوز فترة الأزمات، وهي تحتاج إلى مدة من الزمن ينتقل الإنسان فيها من موقف إلى آخر أشد منه ودواليك.

إن الصبر هو ذلك النور الذي أضاء لجند الله الأوائل طريقهم، فحققوا العزة لأمتهم، ورفعوا راية الإسلام عالية مرفرفة على ربوع المعمورة، وصدق الله تعالى القائل في كتابه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص].

8- تجديد القصد والكفاية المادية:

اعتنى سيدنا رسول الله ﷺ بتربية أصحابه على الاقتصاد، أي إقامة الوجه لله تعالى وتجديد القصد إليه والكفاية المادية. عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: "أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله، ولم تساعده الأيام على أمنيته، فخرج من الدنيا بغير زاد، وقدم على الله تعالى بغير حجة"[1].

فالخسران في الأصل انتقاص رأس المال، وقد استعمله ﷺ فيما هو أعم من ذلك كالإيمان والعبادة وهو بهذا يوجه الأنظار إلى اعتبار الخسارة فيما هو أغلى من المال وأعلى من الجاه.

والمعنى: أشد الناس خسارة رجل أتعب نفسه بالكد والجهد في السعي لبلوغ آماله، ولكن الأيام لم تساعده على حصول مطلوبه من المال والمناصب والجاه ونحوها، بل عاكسته وخذلته، فهو لا يزال يتشبث بالطمع الفارغ والرجاء الكاذب، ويتمنى على

(1) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير، ح1250. قال الألباني: ضعيف. صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، ص125.

الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، فخرج من الدنيا بالموت بغير زاد يوصله إلى المعاد وينفعه يوم يقوم الأشهاد ويفصل بين العباد؛ لأن خير الزاد إلى الآخرة اتقاء القبائح، وهذا قد تلطخ بأقذارها القبيحة الخبيثة الروائح فهو مهلك لنفسه باسترسال الأمل، وهجرة العمل، حتى تتابعت على قلبه ظلمات الغفلة، وغلب عليه رين القسوة، ولم يسعفه المقدور بنيل مرامه من ذلك الحطام الفاني، فلم يزل مغمورا مقهورا مغموما إلى أن فرق ملك الموت بينه وبين آماله، وكل جارحة منه متعلقة بالدنيا فاتته، فهي تجذبه إلى الآخرة التي لا يريدها، وقدم على الله تعالى بغير حجة أو معذرة يعتذر بها، وبرهان يتمسك به على تفريطه بتضييعه عمره النفيس في طلب شيء خبيث خسيسي وإعراضه عن عبادة ربه التي إنما خلق لأجلها[1].

هكذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على استجماع القوى نحو تجديد القصد إلى الله تعالى، وتصحيح الوجهة إليه، والإعراض عن غرور الدنيا ونعيمها الزائل، وشهواتها الفانية، فكان سيرهم حثيثا، وتوسطهم رفيقا، ملكوا الدنيا ولم تملكهم ولم تُزِغْهم عن الآخرة، اتخذوا أسباب الكسب الحلال، وأنفقوا في حلال.

هذا جانب، والجانب الآخر في الاقتصاد هو البعد عن تبذير الجاهلين، والكفاية المادية، وذلك أن صحابة رسول الله ﷺ ما كانوا رجال كسل وخمول، بل تربوا على العمل الجاد، والاهتمام بالأعمال المادية من صناعة ومكاسب، حتى لا يكونوا عالة على غيرهم، ولنا أنموذج واضح -على اهتمام الصحابة ﷺ بالكفاية المادية-، في المهاجرين الأوائل إلى أرض الحبشة؛ فلم يكونوا عالة على غيرهم في ذلك المجتمع، بل كانوا يكسبون ويمارسون ما تعلموه من المهن، وخاصة أنه "كان من بينهم ذو النورين عثمان التقي الطاهر ﷺ، وهو مع ذلك التاجر الماهر، وقد خرج ومعه بعض ماله، ولم يثبت في التاريخ أنهم كانوا في ضيافة النجاشي، لأنهم كانوا يتزايدون في الهجرة ولا ينقصون، وإذا كان لابد من فرض في هذا، فهو أننا نتصور أنه كان يعينهم ليتمكنوا من أعمالهم الكاسبة التي تدر عليهم ما يكفيهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير.

(1) محمد ﷺ الإنسان الكامل، ص233.

ونتصور حينئذ أمرين نفرضهما فرضا:

أولهما: أن يكونوا قد قاموا بما يكسبهم القوت، ولا يعيشون كلاًّ على غيرهم فليس ذلك من مكارم الأخلاق في الإسلام.

ثانيهما: أن نفرض التعاون الكامل بينهم، يعين غنيهم فقيرهم والقادر منهم العاجز، وإذا كانت المؤاخاة قد نظمت العلاقات بين المهاجرين والأنصار، وبين الأوس والخزرج بما فعله النبي ﷺ. فإن التعاون أو المؤاخاة الطبيعية فرضت نفسها في أرض الحبشة بحكم الاغتراب أولا، وبحكم الحاجة إليها ثانيا، وبحكم الخلق الإسلامي الذي يوجب التراحم والتعاطف ثالثا، وقد كان التعاطف امتدادا لما كان في مكة من حماية ضعفاء المسلمين من أقويائهم، كما كان يفعل أبو بكر من شراء العبيد المسلمين وإعتاقهم من غير مَنّ ولا أذى"[1].

9- الجهاد في سبيل الله:

الجهاد: يعني بذل الجهود واستفراغ الطاقة لتحقيق المقاصد التي توجه إليها الرسالة الإسلامية في ميادين الحياة التربوية والفكرية والاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية وغيرها في أوقات السلم والحرب سواء.

وقد بذل الصحابة ﷺ الأرواح والمهج في سبيل نصرة الإسلام، والدفاع عن خير الأنام عليه أزكى الصلاة والسلام، أخرجوا من ديارهم، وتركوا أموالهم وأهليهم في سبيل الله تعالى، وكفلوا الدعوة، وأزالوا كل العراقيل من طريقها، فقرروا سلطان الله في الأرض، وأقاموا العدل فيها، وحققوا المساواة للبشرية، بل رفعوا كلمة الله في الأرض، ونصروا دينهم ونبيه الكريم ﷺ.

وهنا حقيقة لابد من الإشارة إليها، وهي أن الصحابة ﷺ خاضوا جميع أنواع الجهاد وولجوا جميع أبوابه:

---

(1) خاتم النبيين ﷺ، أبو زهرة، 1/ 270.

من جهاد النفس (تزكية النفس وتهذيبها)، مرورا بجهاد المال، فجهاد التعليم والعلم، فجهاد الدعوة، فالجهاد البياني؛ وقد قارع الصحابة ﷺ أسماع قريش بتلاوة القرآن الحجة الدامغة لضلال الوثنية، والكلمة الزاهقة للكفر والشرك.

فجهاد بناء المجتمع العمراني الأخوي: وهذا ما تربى عليه ذلك الرعيل الأول ﷺ، فما عاشوا في فراغ، وإنما بذلوا قصارى جهدهم وكل ما في وسعهم، وشمروا على ساعد الجد لبناء مجتمع فاضل قاعدته التعاون والتآلف والتآزر، وجماله المحبة الصادقة، والأخوة الحانية، والرحمة الدائمة، ولذلك لما هاجر من هاجر إلى المدينة نهضوا جميعا صحبة النبي ﷺ، فَبَنَوْ المسجد، وشاركوا في بناء المجتمع والأمة...

فالجهاد السياسي؛ حيث قارع الصحابة الكرام ﷺ الشرك في عقر داره، وبينوا هشاشته وهزله... وأسهموا في بناء الدولة الإسلامية في المدينة؛ فكان منهم صاحب السر[1]، وصاحب الشرطة[2]، وكان منهم حراس النبي ﷺ[3]، وكان منهم حراس المدينة ليلا[4]، وكان منهم من كان يقوم بتنفيذ أحكام الحدود[5]،وكان منهم حجاب النبي ﷺ[6]، ومنهم حاملو خاتم الرسول ﷺ[7]، ومنهم من كلف بجمع المعلومات[8] من الأعداء[9]، وكان منهم كتاب الرسول ﷺ[10]، و كان منهم من كلف بجهاز الإعلام[11]... إلى غير ذلك

(1) وهو: حذيفة بن اليمان ﷺ.
(2) وهو: قيس بن عبادة ﷺ.
(3) وهم: سعد بن زيد الأنصاري، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن معاذ، ومحمد بن مسلمة، وأبو أيوب الأنصاري، وبلال الحبشي، وزكوان بن عبد قيس، وعباس بن بشير ﷺ.
(4) وهم: سعد بن أبي وقاص، وبديل بن ورقاء، وأوس بن ثابت، وأوس بن عرابة، ورافع بن خديج ﷺ.
(5) وهم: علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة والزبير بن العوام وعاصم بن ثابت وبلال بن رباح الحبشي ﷺ.
(6) منهم: أنس بن مالك ورباح بن الأسود وأبو أنسة وعبد الله بن زغب الإيادي ﷺ.
(7) وهما: سيدنا حنظلة بن الربيع وسيدنا الحارث بن عوف المري رضي الله عنهما كانا يتناوبان على حمله.
(8) ما يطلق عليه اليوم بجهاز المخابرات.
(9) منهم سيدنا عمرو الجهني ﷺ.
(10) وقد تجاوز عددهم الأربعين –حسب ما ذكره كتاب السير والمؤرخون–، منهم الخلفاء الأربع ﷺ...
(11) جهاز الإعلام كان يمثله عدد من الشعراء والخطباء، كحسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، ومن خطبائه: ثابت بن قيس. ..ﷺ.

من المَهمات التي تحملوها في هذه الدولة الإسلامية الجديدة، كما قاموا بحمايتها من الأخطار الداخلية والخارجية، والتزموا بمعاهدة المدينة...

فجهاد الكفر والفقر: حيث عمل رسول الله ﷺ على معاملة أصحابه على قدم المساواة، وحث أتباعه الأغنياء على مساعدة الفقراء والمستضعفين من المؤمنين. فكان الإيثار دأبهم، والأخوة رأس مالهم، اقتحموا عقبة الدنيا والعوائق النفسية من ضن وشح وتحاسد وتنافس على حطام الدنيا الفاني، فطردوا الفقر أخا الكفر، لأن الفقر والكفر متلازمان.

فالجهاد الاقتصادي: إن الاقتصاد يدخل في إعداد القوة، وهو عامل قوي من عوامل قوة الدعوة والجهاد، وهو من أسباب التمكين في الأرض، ولهذا اهتم الإسلام بالموارد المالية وكل ما له علاقة بالاقتصاد كطرق الكسب المشروع؛ من بيوع ووصايا وميراث ووقف وهبات.. وبين كذلك الطرق غير المشروعة وحرمها كالربا والغش والاحتكار والسرقة والترف..

وعلى ذلك، فقد حض الإسلام على التنويع في أساليب الإنتاج، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ[1]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"[2]. في هذا الحديث النبوي الشريف إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة وحدها، وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبَّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سبيل الله وما يتطلبه من إعداد القوة يُعرض الأمة لخطر الذل و"الاستعمار"، وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لابد أن يتوافر في الأمة.

وهنا لابد من الإشارة إلى تلك القصة العجيبة التي تبين لنا جهاد أولئك الرجال وحبهم للجد والاجتهاد، وعدم ركونهم إلى الخمول والراحة، ليحققوا الكفاية المادية لأمتهم، ويرفعوا اقتصادهم، فعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: "قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَآخَى

(1) بيع العينة: هو أن يستقرض رجل من تاجر شيئا فلا يقرضه قرضا حسنا بل يعطيه عينا، ويبيعها من المستقرض بأكثر من القيمة، سمي بها لأنها إعراض عن الدين إلى العين. التعريفات، ص53. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأبرار، محمد بن علي الشوكاني، 5/ 228.

(2) سنن أبي داود، كتاب الإجارة، باب في النهي عن العينة، ح3462.

النبي ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْد بْن الرَّبِيع الأَنْصَارِي، وَكَانَ سَعْدٌ ذَا غِنًى، فقال لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ: أُقَاسِمُكَ مالي نصفين، وَأُزَوِّجُكَ. قَالَ: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّوني على السوق. فما رجع حتى اسْتَفْضَلَ[1] أَقِطًا وَسَمْنًا"[2].

وفي ضوء ما تقدم فقد كان الصحابة ﷺ رجال عمل وكسب، كان منهم الصانع والتاجر والفلاح والراعي... أتقنوا أعمالهم...، والتزموا بشريعتهم التي حذرتهم من التبذير والتطاول في زخرف الدنيا، وحببتهم في التنافس والتسارع في الخيرات، وأمرتهم بالزكاة واكتساب الحلال، وتنميته، والمحافظة عليه، وإنفاقه في سبله المشروعة، وبذلوا جهدهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي لمجتمعهم؛ الغني منهم يواسي الفقير، وأنفقوا أموالهم في سبيل الله، وقدم الأنصار مساعدات اقتصادية لإخوانهم المهاجرين، فحققوا بذلك إنعاشا اقتصاديا مستقلا بذاته، وحازوا النصر في معركة الإنتاج، متحررة من التبعية المادية، ومن كل قيود إلا قيد الإسلام.

فلم يكونوا رجال كسل وخلود إلى الأرض، فعن البراء ﷺ قال : "ليس كلنا سمع حديث رسول الله ﷺ، كانت لنا ضيعة وأشغال ،ولكن الناس كانوا لا يكذبون يومئذ، فيحدث الشاهد الغائب"[3].

فجهاد التَّوحُد: آتت التربية النبوية للصحابة ﷺأكلها، فكانوا يطبقون وصايا نبيهم ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ويتبعونه في جليل الأمر وهينه، رباهمﷺ على الوحدة والتآلف والتعاون والأخوة ...فجمعوا كلمتهم ،ووحدوا جهودهم ،ولموا صفهم ،وتحرزوا عن الاختلاف والتنازع بينهم في الدعوة والجهاد ...وكانوا يحذرون من الاختلاف .فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ يقول: "الزموا هذه الطاعة والجماعة فإنه حبل الله الذي أمر به، وأن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفُرقة..."[4].

---

(1) استفضل: ربح.

(2) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ح2049.

(3) المستدرَك للحاكم، كتاب العلم، فصل في توقير العالم، ح438.

(4) المستدرك للحاكم، كتاب الفتن والملاحم، ح8663.

أما الجهاد القتالي: فقد غزا النبي ﷺ وأصحابه ﷺ بضعا وعشرين غزوة، وبعث من السرايا ما يبلغ الأربعين وقيل زادت على السبعين سرية على اختلاف في ذلك عند أصحاب السير والمغازي.

وخلاصة المرام في تحقيق المقام: بهذا آتت التربية النبوية المحمدية التي خضعت لسنة التدرج أكلها في بناء رجال صدقوا في محبتهم لله ﷻ ولرسوله ﷺ، لا يخافون في الله لومة لائم، ولا تلهيهم الدنيا وزخرفها وغرورها عن الله تعالى، مما جعل منهم صفا متراصا وجماعة قوية "قادرة بعد ذلك على تحمل ضغوط الوثنية عليها في فتنتها عن دينها: اضطهادا وتعذيبًا، ونفيًا وقتلاً، وقطيعة، وتجتاز الابتلاء بصمود وروح معنوية عالية نحو تحطيم النظام الجاهلي والتمكين للنظام الإسلامي بديلا عنه"[1].

وصدق ربنا الكريم القائل في محكم التنزيل: ﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]، لما غيَّر أولئك الرجال ما بأنفسهم بفضل التربية النبوية والصحبة المصطفوية؛ فخرجوا من الجاهلية إلى الإسلام، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن البغض والحقد إلى المحبة والصدق، ومن الغفلة عن الله إلى ذكر الله والحضور مع الله، ومن ضن النفس وشحها إلى البذل في سبيل الله، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن القعود والكسل واتباع الهوى إلى العمل في الكتاب والسنة، ومن الشرك إلى زُياله، ومن عادات الجاهلية إلى أخلاق الإسلام، ومن الغضب والاستعجال والتهور إلى تحمل الأذى صبرا واحتسابا، ومن التبذير والترف والزيغ إلى الاقتصاد وإقامة الوجه لله تعالى، ومن الأماني المعسولة والقعود والنكوص إلى الجهاد في سبيل الله تعالى ونصر دين الله ﷻ، وتبليغ رسالة دعوة الإسلام لخلق الله أجمعين.

لما غيَّروا زكت نفوسهم وتطهرت قلوبهم، غيَّر الله ﷻ ما بهم، فجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ورفع مقامهم في عليين، وفضلهم بصحبة خاتم النبيين ﷺ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [السجدة] ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ... ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام].

(1) منهج النبي ﷺ في الدعوة، ص76.

ومن أراد المزيد من معرفة ثمرة تلك التربية النبوية لأولئك الرجال الرعيل الأول ﷺ فليستقرىء التاريخ ليرى عظمتهم، وكريم فضائلهم، وحسن تربيتهم، وجليل مآثرهم، وما بذلوه من غالٍ ونفيس في سبيل دينهم. ويكفيهم عزا وفخرا وفضلا وشرفا ورفعة أن يقول الله تعالى في حقهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب]. ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ... ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح]. ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر]. ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [الذريات].

هذا غيض من فيض وذرة من مجرة، من حسن تربيتهم، ومن جميل محامدهم، وكريم أخلاقهم، وصور جهادهم، وصدق محبتهم...

ولقد ظلت الأجيال المسلمة عبر القرون تستقي من معين فضائلهم، وتستضيء بنور مكارمهم، وتسلك في التربية منهاجهم، وتسير في المجد سيرهم.. حتى العصر الذي انحسر فيه عن المجتمع الإسلامي حكم الإسلام، وزالت في الأرض معالم الخلافة الإسلامية.. واستطاع أعداء الإسلام أن يصلوا إلى هدفهم الخبيث وغرضهم الدفين في تحويل العالم الإسلامي إلى أمم متناحرة، ودول متخاصمة متنابزة.. تتقاذفهم الأهواء، وتجذبهم المطامع، وتفرقهم المبادئ، وينساقون وراء الشهوات والملذات، ويتخبطون في أوحال التحلل والإباحية، ويسيرون بلا هدف ولا غاية، ويعيشون من غير سعي إلى مجد ولا وحدة ولا كيان... تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى، وتظنهم قوة ولكنهم غثاء كغثاء السيل.

المحور الرابع

منهاج النبي ﷺ في الدفاع عن الدين والأمة

1- فرض القتال على المسلمين:

لما حصل له ﷺ بالمدينة الاستقرار واطمأن به وبأصحابه القرار وآواه أهلها ونصروه حتى استحقوا الاختصاص باسم الأنصار، واجتمع عليه أصحابه من الأنصار والمهاجرين، وكانوا يدا واحدة على أعداء الله الكافرين، وصارت المدينة لهم دار إسلام معقلا وحصنا يلجأون إليه، وموئلا. نزل فرض القتال وبشروا بالإذن في الحرب والنزال بعد أن نهوا عنه في نيف وسبعين آية[1].

شرع القتال في أوائل السنة الثانية للهجرة. وأقصد بالقتال[2] بذل الجهد عن طريق المدافعة أو القتال في حماية دار الإسلام ودعوة الإسلام، ودين الله ﷻ، وإزالة الحواجز والعقبات من طريق الدعوة الإسلامية حتى تبلغ كلمتها إلى العالم، وردع المعتدين ومنعهم عن الأذى والفساد.

وهناك فرق بين القتال والجهاد، فالجهاد ورد في القرآن والسنة بمعاني مختلفة، حيث تفرق بين مفهوم (الجهاد) ومفهوم (القتال)، فكل مسلم يجب أن يكون مجاهدا وليس من الضروري أن يكون مقاتلا، ولقد لبث النبي ﷺ وأصحابه ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاما مجاهدين ولم يكونوا مقاتلين، حتى كانت الهجرة وأذن الله للذين أخرجوا من ديارهم بغير حق أن يدافعوا عن أنفسهم ، تقريرا لحرية الدعوة، ورفعا لكلمة الله تعالى، ثم قرر القرآن القتال لإنقاذ المستضعفين من قبضة المستكبرين..

---

(1) سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبي الأول والآخر، محمد المهدي الفاسي الفهري، دراسة وتحقيق: سعاد رحائم، 1/ 200.

(2) لقد بين علماؤنا وفقهاؤنا حكم هذا النوع من الجهاد، فمن المتفق عليه بين الأئمة أنه فرض كفاية، أما إذا نزل الأعداء الثغور واعتدت أيديهم إلى أواسط المعمور، وجاذبونا طرق الرفعة، وانتزعوا من أيدينا الوطن والبقعة، فلا يمترى في تعيين فرضه، ووجوب القيام لله تعالى في أرضه، والخطاب بذلك يعم الأمة، ويخص بالتعيين الأئمة.

فالإسلام لا يتشوف إلى القتال، ولا إلى إراقة الدماء، وإزهاق الأرواح، بل إذا تم الاتفاق بين الطرفين على حل الأزمة بغير إراقة الدماء والقتال، كان ذلك أفضل: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيّٗا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب].

وسيدنا رسول الله ﷺ هو أشجع الناس وكان لا يخاف في الله لومة لائم ومع ذلك كان لا يحب الحرب لأنه بعث رحمة للعالمين وما بعث لسفك الدماء، وكان يقول لأصحابه: "لاَ تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ وَمُجْرِيَ السَّحَابِ وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ"[1].

وكان ﷺ يقول: "تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الأَنْبِيَاءِ وَأَحَبُّ الأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ وَهَمَّامٌ وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّةُ"[2].

حتى لفظة (الحرب) يكرهها الإسلام، في مقابل ذلك يحرض الإسلام على القتال وبذل الأنفس والأموال في سبيل الله إذا انتهكت حرماته، أو أرعب أتباعه، أو حوربت دعوته، أو اغتصبت أرضه، أو ديست مقدساته: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣﴾ [التوبة].

وردت لفظة الجهاد بمعنى جهاد الكلمة والحجة أو الجهاد البياني: قال الحق جل وعلا في سورة الفرقان الآية: 52 –وهي مكية–: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ[3] جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾. أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل إلا بذلته

(1) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب كان النبي إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول، ح2966.

(2) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تغيير الأسماء، ح4950. والحديث عَنْ أَبِي وَهْبٍ الْجُشَمِيِّ.

(3) قال الشيخ الحسين بن محمد الدامغاني: في قوله تعالى: ﴿وجاهدهم به﴾"يعني بالقول". قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، حققه وأكمله وأصلحه: عبد العزيز سيد الأهل، ص113.

ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت فابذل جهدك واستفرغ وسعك، ولا تيأس من هدايتهم ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم[1].

وقال عز وجل في سورة النحل الآية: 110 –وهي مكية كلها عند جمهور علماء التفسير– قول الله: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴾. أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله طلبا لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة على أكثر الناس[2].

كما وردت لفظة الجهاد بمعنى الجهاد بالنفس والمال؛ قال الله تبارك وتعالى في سورة التوبة –وهي مدنية: ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾. ولهذا فإن الجهاد بالمال والنفس تحقيق كامل لعطاء العوض عن رضى الله ﷻ وجنته.

كما ورد الجهاد بمعنى العمل المبرور والإحسان؛ فعن عَبْد اللَّه بْنَ عَمْرو – رضى الله عنهما – يَقُولُ: "جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النبي ﷺ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ فَقَالَ: " أَحَيٌّ وَالِدَاكَ " . قَالَ: نَعَمْ . قَالَ: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[3].

وعن الصِّدِّيقة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟ قال: "لا لكن أفضل الجهاد حج مبرور "[4].

وعن أم أنس رضي الله عنهما أنها قالت: يا رسول الله أوصني قال: "اهجري المعاصي فإنها أفضل الهجرة، وحافظي على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثري من ذكر الله فإنك لا تأتي الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره" [5].

(1) تفسير السعدي، ص584.
(2) تفسير السعدي، ص450.
(3) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجهاد بإذن الأبوين، ح3004.
(4) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الحج المبرور، ح1448.
(5) المعجم الأوسط للطبراني، 7/ 51. هذا الحديث عن أم أنس الأنصارية وليست بأم سليم أم أنس بن مالك لأنها امرأة أخرى من الأنصار لم يرو هذا الحديث إلا بهذا الإسناد تفرد به هشام بن عمار.

وورد كذلك بمعنى جهاد النفس: قال الحق جل ذكره في سورة العنكبوت –وهي سورة مكية– ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ ﴾، أي: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ ﴾ نفسه، بالصبر على مشاق الطاعات، ورفض الشهوات، وإذاية المخلوقات، وَحَبَسَ النفس على مراقبة الحق في الأنفاس واللحظات، ﴿ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ ﴾؛ لأن منفعة ذلك لها[1].

وعن فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ يُحَدِّثُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ"[2].

وورد كذلك الجهاد بمعنى القيام لله بالقسط وقول الحق، –وبلسان العصر: بمعنى الجهاد السياسي– عن أبي سعيد الخدري ﷺ: أن النبي ﷺ قال: "إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر"[3].

وعن جابر ﷺ: عن النبي ﷺ قال: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله"[4].

وجاء الجهاد بمعنى القتال باليد والمدافعة باللسان للدفاع عن حمى الإسلام، ولتأمين الدعوة والقيام بواجب تبليغ الرسالة للناس كافة، وإقامة العدل في الأرض: عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "جَاهِدُوا بِأَيْدِيكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ"[5].

هذا علاوة على أن الله تعالى ما ذكر المؤمنين في موقف التعريف بأخص خصائصهم إلا ذكر الجهاد بالمال والنفس. فالجهاد مستمر إلى يوم القيامة وغايته حمل رسالة الإسلام

(1) البحر المديد، أحمد بن عجيبة، 5/ 298.

(2) سنن الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب من جاء في فضل من مات مرابطا، ح1621. قال أبو عيسى في الحديث: حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(3) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب أفضل الجهاد، كلمة عدل عند سلطان جائر، ح2174، قال أبو عيسى وفي الباب عن أبي أمامة وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، قال الشيخ الألباني: صحيح، السلسلة الصحيحة، 1 / 806.

(4) المستدرك، للحاكم، كتاب معرفة الصحابة، ذكر إسلام حمزة ﷺ، ح4884، وقال: صحيح الإسناد و لم يخرجاه.

(5) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب من خان غازيا في أهله، ح3192. قال الألباني: حديث صحيح.

وتبليغها للناس كافة. فإذا اعترض طريق التبليغ معترض، أو وقف في طريقها معتد، أو هدد الإسلام مهدد فالقتال آخر وسيلة لصد المعتدي وكسر شوكة العائق.

وهذا كله يوضح مدى اتساع دائرة الجهاد، وأنها ليست محصورة في القتال فقط، بل هي مرتبطة بجوانب الحياة كلها.

فيتحصل من الحديث السابق عن بعض معاني الجهاد كما جاءت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ومن وجهة نظر التأصيل العلمي أن كل قتال في سبيل الله يعد جهادا، وليس كل جهاد في سبيل الله ينبغي أن يكون قتالا.

ومن ثَمَّ فإن الجهاد بالمعنى المذكور متصل وماض حقا إلى يوم البعث والنشور، بينما القتال حالة استثنائية له أسبابه وعوارضه بها يقوم ويزول.

فالجهاد بمعناه الشامل قيمة عالية المقام، عظيمة القدر تمثل دعامة رئيسة في منهاج الإسلام، فضلا عن أن لتلك القيمة رنينها المجلجل في عمق التاريخ الإسلامي، وبصماتها في صفحاته المشرقة.

وشمولية معاني الجهاد تجعل ترجمته إلى اللغات الأخرى أمراً صعبا وضاراً، حيث تفرغه تلك الترجمة من مضمونه ومعناه السامي، وتشوه معناه كما حدث لترجمته إلى اللغة الانجليزية التي أطلقت عليه اسم الحرب المقدسة (Holy War) حيث عممت بابا واحدا من أبوابه الكثيرة أو نوعا واحدا من أنواعه المختلفة، وسدت باقي أبواب الجهاد وطمست بقية الأنواع .

وهنا أقول للمتنطعين الذين يحصرون الجهاد في معناه القتالي: إن السبب في انتشار الإسلام ليس السيف، وإنما انتشر بمعجزته الخالدة –القرآن– التي تخرق جُدُر الصدور بروحانيتها العالية، وانتشر بأخلاقه السامية، وبرحمته وعدله وفضيلته التي لا نظير لها في العالم من قبل ومن بعد. والدليل على هذا ما هو مقرر في كتب التاريخ في أن معظم البلاد التي دخلها نور الإسلام مثل إندونيسيا والصين خاصة، وجنوب شرقي آسيا عامة، إنما دخلها عن طريق الدعاة إلى الإسلام الذين ولجوا باب تلك الديار عن طريق التجارة فأثروا

في الناس بأخلاقهم وحسن معاملتهم وبحالهم ومقالهم، أضف إلى ذلك دخول الإسلام إلى بلاد الأندلس وأوربا، والآلاف التي تدخل في دين الإسلام اليوم أفواجا من الأوربيين والأمريكان واليابانيين...

هذا، ومن المعلوم أن الحرب في الإسلام ليست عدوانية، ولا استفزازية، ولا همجية، ولكنها للدفاع عن الدين والبلاد، وإنقاذ المستضعفين من المسلمين. وذلك أن الإسلام يعتبر بلاد المسلمين كلها داراً واحدةً وبلداً واحداً يجب حمايته والجهاد دونه إن كان دار عدل بيد المسلمين، ويجب استرداده إن كان مسلوبا، كما يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة يجب الدفاع عنهم لاستنقاذ المستضعفين وحمايتهم في أي بلد أو دولة[1].

والحاصل: أن الجهاد القتالي، كان من أجل شيء واحد فقط، وهو حمل الدعوة الإسلامية وإنقاذ شعوب العالم من حياة الشقاء والتعاسة. وإخراجهم من ذلك كله، إلى نور الإسلام، وضياء القرآن، وإلى العبادة الكاملة والطمأنينة الحقة، من تطبيق نظام الإسلام، ونشر عقيدته الصافية النقية[2].

ولا يخفى أن الإسلام أجاز الجهاد القتالي في حالتين اثنتين فقط؛ حالة الدفاع عن النفس وعن الدين وعن حرية العقيدة، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

وحالة دفع العدوان ورد اعتداء المعتدين[3]، ورفع الظلم عن المستضعفين، وإقامة العدل في الأرض. قال الله جل ذكره: ﴿... فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة]، وقال جل وعلا: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

(1) منهج الإسلام في الحرب والسلم، عثمان جمعة ضميرية، ص129.
(2) الإسلام بين العلماء والحكام، عبد العزيز البدري، ص226-227.
(3) "على الرغم من أن الإسلام قد أباح القتال إلا أنه قد رد الاعتداء بالقدر اللازم دون مجازاة أو تنكيل".

ولنا في سيدنا رسول الله ﷺ إسوة وقدوة في جهاده القتالي؛ حيث لم يكن صلوات ربي وسلامه عليه في جميع غزواته وسراياه بادئا بالقتال، أو طالبا لدنيا، أو جامعا لمال، أو راغبا في زعامة، أو موسعا لحدود دولة أو مملكة، بل كل ذلك كان هداية للناس، وتحريرا للعقول، ورفعا للظلم، وربطا للناس برب العالمين، بأعلى أساليب العفة والشرف، والنبل مما جعل هذه الغزوات أنموذجا للتعامل الدولي في الحروب والأسارى[1].

ومن تأمل في جهاده ﷺ القتالي يجده أنه لم يرفع سيفه إلا إذا اضطر إليه نصرة لكلمة الله ودفاعا عن دين الله وعن المستضعفين. وخير دليل على هذا أنه ﷺ لم يقتل بيده الشريفة إلا رجلا واحدا وهو أبي بن خلف يوم أحد، فما بُعث -عليه صلوات ربي وسلامه- للقتال، ولكن بُعث لتبليغ الرسالة وهداية الناس أجمعين، وما القتال إلا للدفاع عن الدعوة الإسلامية ورد الذين يقفون في وجهها بالعداء والكيد، وصدق ربنا تبارك وتعالى الذي خاطب نبيه وصفوة خلقه بقوله: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٦٧ ﴾ [المائدة].

وهنا حقيقة أخرى لابد من التذكير بها؛ هي أن غزوات النبي ﷺ قد بلغت سبعا وعشرين غزوة، وسراياه وبعوثه أربت على الأربعين أو قاربت السبعين، وعدد القتلى من المسلمين في تلك السرايا والبعوث كلها 139 شهيدا، ومن والكفار والمشركين[2] 112 قتيلا، ومجموع الطرفين 251، وهو عدد ضحايا حوادث السيارات في مدينة كالدار البيضاء أو غيرها.

وقد أريق في جميع الغزوات والسرايا والبعوث التي بعثها النبي ﷺ، التي استغرقت تسعة أعوام أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات، وكانت حاقنة لدماء الكثير من الناس، عاصمة للنفوس البشرية، باسطة الأمن والسلام والسكينة والطمأنينة في أرجاء الجزيرة العربية، فاتحة عهد السعادة في العالم.

(1) العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، فاروق حمادة، ص172.

(2) هذا، إذا استثنينا يهود بني قريظة (الذين كانوا بين الستمائة والثمانمائة)، لأن ذلك لم يكن قتالا، بل كان حكم الإعدام عليهم بما اقتضاه دستور المدينة -الذي وافقوا على بنوده- في الخيانات والمكائد. وحكم سنة الله في الجزاء من جنس العمل.

وإذا قارنا هذه النتائج–مثلا– بقتلى الحربين العالميتين: الأولى (1914–1918م) والثانية الكبرى (1939–1945م)؛ نجد أن في الأولى بلغ عدد المصابين 21.000.000 [1] عدد المقتولين 6.400.000 نفس[2]، وفي الثانية بين 35.000.000 و 60.000.000 نفس[3]. وقد كلف قتل رجل واحد في الحرب الأولى 10.000 جنيه، أما مجموع نفقاتها فيبلغ 37.000.000.000 جنيه، أما نفقات الحرب الثانية لساعة واحدة فمليون من الجنيهات 1.000.000 [4]. ولم تخدم هاتان الحربان –كما يعلم الجميع– مصلحة إنسانية، ولم يستفد منهما العالم البشري في قليل أو كثير.

وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى، والاضطهاد الكنسي إلى 12.000.000 نفس[5]،[6].

ولهذا، فإن كلمة الحرب إذا أطلقت في عصورنا ذكر معها الخراب والدمار، واستباحة الحرمات، ونشر الفساد والانحلال والانطلاق من كل الروابط الإنسانية، حتى إنه ليؤخذ بجرائرها الآمن في سربه والحامل لسيفه، ولكن حروب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كانت حروبا فاضلة تظلها التقوى، فلا يقتل إلا من يقاتل بنفسه أو بتدبيره، أما الزراع والعمال فلا تمتد إليهم يد بأذى[7].

ومما يزيد الأمر وضوحا، أن معارك النبي ﷺ لم تكن للاستيلاء على الأراضي وقتل الأبرياء وسفك الدماء... بل كانت حروبا دفاعية أو وقائية لمنع هجوم عليه أو على الإسلام، فلا خلاف أن مكة بدأت بمعاداته واضطهاده ومحاولة استئصاله، وتبعتها قبائل

(1) هذه الزيادة من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص291.
(2) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية، ط/ 1974م، 19/ 966.
(3) السيرة النبوية، أبو الحسن علي الحسن الندوي، نقلا عن دائرة المعارف البريطانية، ، 19/ 1013.
(4) هذه الزيادة من كتاب: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص291، نقلا عن مقالة لـ: E.H.Tawansend، نشرتها صحيفة هندو الانكليزية اليومية (31يناير1943م).
(5) السيرة النبوية، الندوي، نقلا عن: John Davenport: Apology For Muhammad and Quran
(6) السيرة النبوية، الندوي، ص429.
(7) تنظيم الإسلام للمجتمع، محمد أبو زهرة، ص48.

الجزيرة العربية، وعادوا ذلك[1].

ومن أجل ذلك كان النبي ﷺ إذا بعث جيشا أوصاه بتقوى الله وعدم الاعتداء...فعَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنهما قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺإِذَا بَعَثَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْصَاهُ فِي خَاصَّةِ نَفْسِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا وَقَالَ: «اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وَلاَ تَغُلُّوا وَلاَ تَغْدِرُوا وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا، فَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى إِحْدَى ثَلاَثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلاَلٍ- أَيَّتَهَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمُ: ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ وَالتَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُوا كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِى عَلَيْهِمْ مَا يَجْرِى عَلَى الأَعْرَابِ، لَيْسَ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلاَّ أَنْ يُجَاهِدُوا، فَإِنْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ عَلَيْهِمْ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ حِصْنًا فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلاَ تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلاَ ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَاجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَمَ أَصْحَابِكَ، لأَنَّكُمْ إِنْ تُخْفِرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلاَ تُنْزِلُوهُمْ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لاَ تَدْرِى أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لاَ أو نحو هذا»[2].

إن هذه الوصية الغالية تكتب بمداد من ذهب، وهي من مميزات وخصائص هذا الدين العظيم، الذي لا يقاتل ولا يغزو من أجل الدنيا، أو الاستكثار من الناس، أو توسيع مناطق نفوذه، وإنما يغزو ويجاهد من أجل الدعوة الإسلامية، وإنقاذ الناس من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة، واستجابة لأمر الله تعالى الذي أمر بحماية الدعوة ونشرها والدفاع عنها. قال رسول عمرو بن العاص عبادة بن الصامت للمقوقس -في إحدى المعارك التي فاوض فيها المقوقس: "وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدواً ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا

(1) الإسلام كبديل، مراد هوفمان، تعريب: عادل المعَلّم، ص149.

(2) سنن الترمذي، كتاب السير، باب ما جاء في وصية النبي ﷺ في القتال، ح1618. وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة[1] يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذه بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة؛ بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا تكون همة أحدنا في الدنيا إلا ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه[2].

فالقتال في الإسلام له أهداف سامية، وضوابطه راقية، ليست كأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها على مر التاريخ الطويل. القتال في سبيل الله . لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض، ولا في سبيل المغانم والمكاسب؛ ولا في سبيل الأسواق والخامات؛ ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس.. إنما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض، وإقرار منهاجه في الحياة، وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم، أو أن يجرفهم الضلال والفساد، وما عدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام[3].

2- أهداف الغزوات والسرايا النبوية:

أ) الفرق بين الغزوة والسرية:

إن الفرق بين الغزوة والسرية والبعث؛ هو أن كل ما خرج فيه ﷺ بنفسه يسمى عند الجمهور غزوة، وقع فيه قتال أم لا، وما لم يخرج فيه ﷺ بنفسه يسمى بعثا أو سرية ولا ينحصر في عدد معين بل ربما بعث ﷺ رجلا واحدا.

قاتل رسول الله ﷺ في تسع غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمريسيع وخيبر والفتح وحنين والطائف، ويقال: إنه ﷺ قاتل أيضا في بني النضير ووادي القرى، والغابة.

(1) شملة: الشَّمْلة كساءٌ يُشْتَمَلُ به. مختار الصحاح، باب الشين مادة شمل ص156.
(2) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، للأتابكي، 1/ 18.
(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، م1/ ج2/ 187.

وقاتلت معه ﷺ الملائكة منها في بدر وحنين وأحد على خلاف في الثالثة. ونزلت الملائكة يوم الخندق فزلزلوا المشركين وهزموهم.

وقاتل بالمنجنيق والدبابة في غزوة واحدة وهي الطائف.

وتحصن ﷺ بالخندق في واحدة وهي الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه.

ب) أهم أهداف الغزوات والسرايا النبوية:

كان الذين يزعجهم النور يسعون جاهدين لإطفائه فيتعرضون في كل مكان للدعوة القرآنية، وعندما يتمكنون من القبض على أي مسلم سرعان ما كانوا يقتلونه، وقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه حمل مشعل الدعوة وإزاحة كل العقبات من طريقها، لذا هيأ هذه السرايا وبعثها إلى جميع الجهات، وكان عدد أفرادها لا يقل عن العشرة ويتجاوز المائتين، وكانت الغاية من هذه السرايا الوصول إلى بعض الأهداف المعينة، بعد استقصاء الأخبار وجمع المعلومات وإيصالها إلى رسول الله ﷺ، أهم تلك الأهداف هي كالآتي:

1-الإشعار بوجود الكيان الإسلامي: أي إشعار الجميع بوجود الإسلام وبكيانه بالمدينة، وأن المشركين وإن أخرجوا المسلمين من ديارهم في مكة، وأخذوا أموالهم، وعذبوهم، إلا أنهم لم يستطيعوا إطفاء نور الإسلام، وفق سنة الله الأزلية: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الصف].

2-إظهار أن الهيمنة للحق: يريد أن يبرهن على أن الحكم ليس لكفار قريش فقط الذين اغتصبوا حق الإنسانية واستغلوها واستعبدوها، بل إن لممثلي الحق حصَّة من الحكم ونصيبا، وسيأتي يوم تخضع فيه القوة بكل ما لديها من عدة وعتاد للحق وتستسلم له، وحينئذ ستكون الكلمة في الأرض بيد الحق وحده، ويسود وحده، ويرث المسلمون الأرض، ويستخلفهم الله فيها. فتحقق هذا في الفتح الأعظم لمكة المكرمة، وخضعت كل الأمم للإسلام.

3-حماية الدعوة الإسلامية وتأمين انتشارها: بفضل تلك السرايا التي كانت تصول وتجول هنا وهناك، وبفضل غزوات النبي ﷺ، استطاع المصطفى ﷺ أن يمسك بالنظام

والانتظام في يده، وأن يرسل الدعاة والمبلغين والمرشدين إلى كل مكان، وأن يؤمن تجولهم بين المدن والقرى دون خوف أو وَجَل، ويهيء لهم جوا هادئا بعد إزاحة كل العقبات من طريق الدعوة، لكي يقوموا بمهماتهم في التبليغ.

كان رسول الله ﷺ يخرج في الغزوات ويرسل السرايا بشكل مستمر للمناطق المحيطة بالمدينة من أجل هذه الأهداف، ففي بضعة أشهر كانت هذه السرايا تظهر في أماكن بعيدة لم يكونوا يقطعونها آنذاك إلا خلال شهر، أو تظهر بمعركة بمكة، وكأنهم أشباح أو ملائكة ظهرت ثم اختفت بسرعة، مخلفة وراءها الرعب عند العدو الذي بدا وكأنه يُسحب إلى معركة بدر وهو مشلول من الخوف.

4- إقرار الأمة وبسط السلام في الأرض والدفاع عن المستضعفين: كان النهب والسلب سائدا في تلك الأيام في الصحراء، فالحق للقوة، ولم يكن للضعيف وللمظلوم حق الحياة، فالذي يملك القوة كان يستطيع سحق الآخرين.

فانتشرت السرايا في كل مكان، وخرج النبي ﷺ قائدا مجموعة من الغزوات ﷺ مما حال دون أن يتعرض أي شخص لماله ولا لعرضه، ولا لشرفه، ولا لنفسه.

وهكذا عرف الجميع بشكل جيد بأن الصحراء لم تكن ملكا لمشركي قريش وحدهم، بل إن لرسول الله ﷺ نصيبا وحصة وحقا، وسيزداد هذا الحق على مر الأيام ويكبر كما انتشر النور حتى يكون له في كل بيت وفي كل قلب أثر[1].

كما كان من أهداف هذه الغزوات والسرايا النبوية رد العدوان، والدفاع عن النفس وتخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والإنصاف، ومن نظام يأكل فيه القوي الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوي ضعيفاً حتى يؤخذ منه، وإطفاء نار الفتنة ورد البغي، وكسر شوكة الأعداء في صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتطهير الأرض من الغدر والخيانة والإثم والعدوان، وبسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

(1) النور الخالد محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، ص410-412.

أما عن أهداف الحرب في الجاهلية، فقد كانت عبارة عن نهب، وسلب، وقتل، وإغارة، وظلم، وبغي وعدوان، وأخذ بالثأر، وفوز بالوَتَر، وكبت للضعيف، وتخريب للعمران، وعبث وفساد في الأرض، وهتك للحرمات والأعراض، وقسوة بالضعاف والنساء والصبيان، وإهلاك للحرث والنسل...

ب) أهم نتائج الغزوات والسرايا النبوية:

1 -هزيمة الكفر في حربه للإسلام؛ بشرط أن يبذل أهل الإسلام المساعي والجهود لنصرة دينهم والدفاع عن حماه... ففي كل السرايا التي بعثها النبي ﷺ تتكرر سنة من سنن الله في تنازع الحق والباطل والتدافع بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وعداوة الكفر للإسلام، لكن الإسلام انتصر في النهاية، وكانت له السيادة والحق، في المقابل كانت خسارة أحزاب الشيطان في حربهم على المسلمين وتفرق شملهم ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم ومساعيهم.

2 - تحقيق السيادة والاستخلاف في الأرض: تحققت سنة الله في إزهاق الحق للباطل، وانتصار المؤمنين المجاهدين على الكفار والمشركين المنكرين، وتحقق وعد الله لهم بالنصر ؛ قال الحق سبحانه وتعالى:﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ ﴾ [القصص]. فنكست رءوس الجبابرة، والطواغيت وخضع الكل لسلطان الإسلام، وورث المسلمون أرض مكة، وحفظ الله ﷻ نبيه ﷺ من كيد الكائدين، ورفع ذكره في العالمين، وإرضائه في الأولين والآخرين، وعصمته من الناس أجمعين.

كما كانت نتيجة هذه الغزوات والسرايا إرهابا شديدا للمشركين، وبث الرعب في قلوبهم، وإشعار أولئك الأعداء باليقظة من جانب المجاهدين المؤمنين.

وكان من نتيجتها أيضا أن علم كفار قريش أن الطريق لهم ولمالهم غير مأمون، وأنه يتربص بهم الدوائر، فازدادوا خوفا على الخوف الذي ولدته هزيمتهم في المعارك، وأحسوا بذلك أن الإسلام صار قوة للحق لا ينال منه بغرة، وأنه لم يعد هناك أمن لهم.

كما بدأ الأعراب والبدو في الصحراء يقولون في أنفسهم لم يعد باستطاعة أهل مكة أن يحافظوا علينا، ولم يعودوا مبعث أمن لنا، والظاهر أن مصير الناس انتقل إلى أيد أخرى، لذا من الأفضل لنا أن نتقرب إلى هؤلاء. لذا توافدوا على النبي ﷺ، وبدؤوا يدخلون في دين الله أفواجا.

3- ذيوع الأمن: قوة جديدة ظهرت في الصحراء وأثبتت وجودها، لم تعرف مكة قدر "الأمين". "الأمين" الذي ندعوه :"محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين"، هو الآن في المدينة، وكان الأمن والأمان عنده، بدأوا يتوجهون إلى المدينة بينما فقدت قريش مظاهر الثقة المعقودة لها سابقا، لم تكن عاجزة عن إعطاء الأمن والثقة للآخرين فقط، بل كانت عاجزة عن تأمين قوافلها هي إذ كانت تحت تهديد دائم.

4- سرعة السيطرة على الأمور: بدأت الصحراء تدخل في حكم النبي المجتبى ﷺ شيئا فشيئا، لذا بدأ العدو يحسب حسابه. وتغير الموقف لصالح المسلمين بعد غزوة الأحزاب وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال: "الآن نغزوهم ولا يغزونا"[1]. فكانت للمسلمين بعد ذلك هيبة يهزمون بها الجموع، ويكسرون بها الجيوش، ويهزمون بها الشجعان، ويرهبون بها الأعراب الآخرين.

كما درأت هذه السرايا الفتنة ومنعت البغي في الداخل والخارج.

5- كانت السرايا التي جاءت بعد خيبر لبث روح الإجلال للإسلام، وكسر شوكة من يكيدون له، أو للتعرف على أحوال العرب والقبائل المجاورة، أو هي أشبه بالدوريات التي تمر بالبلاد احتياطا، وتأديبا لكل من تسول له نفسه الاعتداء على المسلمين أو النكاية لهم. فلم تكن هذه السرايا ذات خطر في توجيه الحروب، بل كانت لحوادث صغيرة كما سبق.

6- كشفت هذه الغزوات مكائد اليهود ودسائسهم وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم فقد نقضوا عهودهم مع النبي ﷺ في وقت الشدة وجيوش الكفر تحيط بهم من كل جانب. كما كشفت حقيقة النفاق، وأزاحت اللثام عن مكره وخبثه.

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ح4110. والحديث عن سيدنا سُلَيْمَانَ بْنَ صُرَدٍ ﷺ.

7- إتقان الخطط العسكرية: إننا نرى بوضوح كامل كيف كان معظم الصحابة رضوان الله عليهم مشاركين ضمن هذه السرايا والبعوث قوادًا تارة، وجنودا عاديين أخرى، فكان ذلك من الخطط (الإستراتيجية) بعيدة المدى يعدها النبي ﷺ لتثبيت دعائم الأمة الإسلامية، وإعدادا منظما ودقيقا لجيوش الفتوحات الإسلامية التي ما فتئ عليه الصلاة والسلام يبشر بها أصحابه بين الفينة والأخرى في أوقات السلم والحرب والخوف والأمن[1].

فكانت ثمار تلك السرايا والبعوث يانعة، وعراجينها دانية، ونتائجها باهرة، أدهشت القاصي والداني لما حققته من فتوحات إسلامية في وقت يسير، ويزيد هذه النتائج دهشة الوصايا النبوية والتوجيهات المصطفوية لأمراء جيوشه بتقوى الله والرحمة بالشيوخ والنساء والصبيان، والتزام الأخلاق الحسنة والخصال الحميدة، فكانوا لهذه الوصايا والتوجيهات مطبقين وبها ملتزمين، وكانوا بعد مرحلة النبوة للمنهاج النبوي سالكين، ولأثره مقتفين، ففتحوا قلوب العباد، وفتحوا البلاد.

(1) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة؛ دراسة نقدية تحليلية، أعدها: بريك أبو مايلة العمري، أشرف عليها: أكرم ضياء العمري، ص61.

المحور الخامس

محبة الصحابة ﷺ لرسول الله ﷺ

(مواقف خالدة في الغزوات والسرايا)

إن التواضع وعدم التكبر جناحان يطيران بالإنسان إلى الأعالي وبهذا التواضع الجم استطاع سيدنا رسول الله ﷺ أن يكون هاديا أبديا للإنسانية، فقد استطاع الناس أن يقابلوه ويتكلموا معه بكل اطمئنان وراحة، ويبثوا إليه مشكلاتهم ويعرضوا عليه أسئلتهم، لأن سلوكه المتواضع كان ييسر لهم هذا. ولقد احتضن رسول الله ﷺ برسالته ورحمته الإنسانية كلها بل الوجود كله، غير أن حبه الواسع وشفقته الشاملة لم تبق في دائرة الكلام أو في بطون الكتب كما فعل الآخرون، بل سرعان ما انعكست في الحياة العملية وبكل معانيها العميقة وأبعادها الشاملة، علما بأنه ما من فكر من أفكاره ﷺ أو عمل من أعماله إلا وأخذ طريقه إلى التطبيق العملي، ذلك لأنه كان رجل فكر وحركة وعمل.

انطلاقا مما سبق سأتحدث في هذا المحور عن أولئك الصحابة الذين تفانوا في حب الحبيب الأعظم ﷺ، حتى افتدوه بالمهج والأرواح.

نتأمل في بعض الغزوات والسرايا النبوية لنرى ذلك الحب الشديد الذي رفع أولئك الرجال مقاما عليا، وبوأهم مقعد الصدق عند ربهم ﷻ؛ فصغرت في أعينهم الدنيا وغرورها، وعظمت الآخرة ونعيمها وما أعده الله تعالى للمحبين الصادقين.

أنزل الله تعالى يوم تبوك آيات بينات يحث المسلمين على النفير العام، ويحذرهم من مغبة التقاعد، وتولية الأدبار، ويذكرهم بأن سنته في استبدال الأقوام ماضية لا تتخلف، إن تقاعسوا واستجابوا لأنفسهم، قال الحق جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [التوبة].

كما يذكرهم سبحانه بأن المحبة تقتضي من المحب أن يبذل الغالي والنفيس في سبيلها، تقتضي منه أن يترك الدنيا ويفر من مغرياتها ويقبل على الآخرة ونعيمها؛ فاستجاب الصحابة ﷺ لنداء ربهم، وعبروا عن تلك المحبة الشديدة لله ﷻ ولسيدنا رسول الله ﷺ بخروجهم في ذلك الحر الشديد، وبإنفاقهم أموالهم في سبيل الله.

وهنا نستعرض بعض اللمحات من تلك الغزوة، لنتأمل ذلك النفير العام، قال ابن هشام –رحمه الله: أمر النبي ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدة من الحر، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه؛ وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلا ما كان من غزوة تبوك، فإنه بينها للناس لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أهبته، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم"[1].

ثم جد رسول الله ﷺ في سفره، وأمر الناس بالإعداد والجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على الإنفاق في سبيل الله، وحث الجميع على السير نصرة لدين الله، فاستجاب المؤمنون لنداء رسول الله ﷺ فأنفقوا واحتسبوا لله، وأنفق سيدنا عثمان بن عفان ﷺ يومذاك نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، وجَدَّ الجميع في السير إلى أرض المعركة.

قال ابن هشام –رحمه الله–: "أنفق –سيدنا عثمان– في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ""[2].

وتخلف من تخلف عن سيدنا رسول الله ﷺ يومذاك من المنافقين، ومن المؤمنين وهم ثلاثة، أما أبو خيثمة ﷺ فإنه "رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أياما إلى أهله في يوم حار فوجد امرأتين له في عريشين[3] لهما في حائطه، قد رشت كل واحدة منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعاما، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا

(1) سيرة ابن هشام، 4/ 397.
(2) سيرة ابن هشام، 4/ 399.
(3) العريشين: العَرِيشُ خَيْمةٌ من خشب. لسان العرب، مادة: عرش.

له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح[1] والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادا ففعلتا. ثم قدم ناضحه[2] فارتحله ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ (...) حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا خيثمة" فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: "أولى لك يا أبا خيثمة". ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر. فقال له رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير"[3].

ومضى سيدنا رسول الله ﷺ في طريقه إلى أرض تبوك وفي كل مرة يتخلف أناس فيقول أصحابه: يا رسول الله تخلف فلان فيقول: ""فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه" حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره فقال: "فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه" وتلوم أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيا، ونزل رسول الله في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده؛ فقال رسول الله ﷺ: "كن أبا ذر". فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر ؛ فقال رسول الله ﷺ:"رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده""[4].

أما شأن المخلفين الثلاثة[5] وهم: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَمُرَارَةُ بْنُ الرّبِيعِ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيّةَ ﷺ تخلفوا من غير شك ولا نفاق، فقد نهى النبي ﷺ الناس عن كلامهم خمسين ليلة وأمر

(1) الضح: الضِّحُّ الشمس وقيل هو ضوؤها وقيل هو ضوؤها إذا استمكن من الأَرض. لسان العرب، مادة: ضحح.
(2) ناضحه: الناضحُ البعير أَو الثور أَو الحمار الذي يستقى عليه الماء والأُنثى بالهاء ناضحة. لسان العرب، مادة: نضح.
(3) سيرة ابن هشام، 4/ 401-402. مغازي ابن عقبة، ص295-296.
(4) سيرة ابن هشام، 4/ 404-405.
(5) انظر القصة بطولها وبتفصيل في: مغازي ابن عقبة، ص301-306. المغازي النبوية للزهري، ص106-107. غزوات الرسول ﷺ، لابن كثير، ص395. سيرة ابن هشام، 4/ 410-413.

نساءهم بأن يعتزلوهم، واشتد غضبه ﷺ عليهم[1]؛ لأن تخلفهم عن الخروج للقتال -وهم من الأنصار- كالنكث لبيعتهم، والقتال إن كان فرض كفاية فهو في حق الأنصار فرض عين؛ لأنهم بايعوا النبي ﷺ على ذلك، أما تخلف من تخلف عن غزوة بدر فإنهم لم يخرجوا للقتال، وإنما خرجوا لأخذ العير، انتقاما من قريش التي أخذت أموال المهاجرين وديارهم في مكة.

وبقي أولئك الثلاثة على تلك الحال حتى تاب الله عليهم بصدقهم في بيان أعذارهم، ولم يكذبوا على سيدنا رسول الله ﷺ كما كذب عليه المنافقون، قال الباري جل وعلا يصف الحالة النفسية للمخلفين الثلاثة: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة].

لقد كان توقيت معركة تبوك ابتلاء للمؤمنين وتمحيصا لسرائرهم، ليميز الله الخبيث من الطيب، والصادق من المدعي، والمجاهد من المتقاعد المتقاعس.

فغزوة تبوك أو العسرة كانت غزوة عسرة في الحقيقة، وغزوة امتحان لصدق الإيمان، وإخلاص اليقين، والتفاني في فداء العقيدة ونشر الدعوة إلى الله، وتبليغ الرسالة بما تتطلبه من بذل الأرواح والأموال أبانت عن معادن النفوس المؤمنة التي رباها النبي ﷺ لتكون أنموذجا للفضائل تتأسى به أجيال الإسلام في مستقبل حياتها، وما يقابلها في طريق مسيرتها من عقبات وشدائد، لا يخرجها منها إلا إيمان صادق، وعزائم صارمة، واستسلام لوجه الله يجعل من الأرواح والأموال وسائل لتحقيق مراضي الله ورسوله وحبهما، والوقوف عند أوامرهما ونواهيهما[2].

(1) وقد نبه الحسن البصري على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال: يا سبحان الله! ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حراما ولا سفكوا دمًا حرا ولا أفسدوا في الأرض، أصابهم ما سمعتم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر؟ فتح الباري، 7/ 736.

(2) محمد رسول الله ﷺ، صادق عرجون، 4/ 437.

لقد كانت غزوة تبوك شبيهة بمحنة أُحُد، نارًا ممحصة على حريقها ووهجها تَمَيَّز المنتمون إلى معسكر الإسلام، درجات بعضها فوق بعض، وهذا شأن كل معسكر في تاريخ البشرية، فليس بنو آدم ملائكة يقفون صفا واحدا ولكنهم يتميزون في إيمانهم وإخلاصهم وانتمائهم، تميزهم الانتصارات الحاسمة والانكسارات الخطيرة وتفرق بينهم تجارب الراحة والسعادة وآلام المحن والنكبات. فها نحن أولاء نجد والرسول ﷺ يدعو المسلمين أن يتجهزوا للرد على التحدي البيزنطي عبر المجاعة والعطش وجحيم الصحراء وطريقها الطويل، أناسا يقفون في القمة وآخرين يتحركون صعدًا في منتصف الطريق لا يقدرون على الصعود خطوات أخرى إلى أعلى، وهم مع ذلك يحاولون ويحاولون، وفئة ثالثة حرنت في مواقعها لا تريد أن تسعى ولا أن تتحرك.. وهنالك في الأسفل، عند جدار المرتفع وفي منخفضاته، طوائف كثيرة من المنافقين والمنهزمين، يتخبطون كالحشرات والديدان دورًا على أنفسهم وبقاء في الحفر الضيقة!![1].

وفي سرية مؤتة: ابتلي يومها صبر المؤمنين وبذلهم في سبيل الله، وصدق إيمانهم، وحبهم لله ﷻ ورسوله الكريم ﷺ بالمقابلة مع حب أهاليهم وأموالهم وراحتهم، وابتلي وفاؤهم ببيعتهم لنبيهم ومنقذهم من الضلال، فتمايز الصادقون من الكاذبين، والمؤمنون من المنافقين، والمتخلفون الناكصون من المجاهدين الشجعان، وتمايز جند الشيطان وجند الله. وظهر الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كما ظهر الذين أخلفوا الله ما وعدوه.

كانت سرية مؤتة تجربة قاسية، وامتحانا عسيرا لجند الله الصادقين؛ وكأن الأقدار الإلهية شاءت أن لا يرحل القائد المربي أبو الأمة ورمز وجودها ﷺ حتى يتأكد من صلاحية صنع يديه الكريمتين، وحتى يمر جند الله من عملية العيار. وكانت القيمة الممتحن فيها هي القابلة للفداء وطلب الاستشهاد في سبيل الله.

إن جند الله أحباب الحبيب المصطفى ﷺ الذين برزوا من عرينهم كالأسود كانوا حملة رسالة عظيمة خالدة هي أعز عليهم من أموالهم وأنفسهم، وكانوا نتاج تربية وتمحيص على محك الأحداث العسيرة.

(1) دراسة في السيرة، عماد الدين خليل، ص255.

إن السر الذي انتصر به الصحابة الأنموذج الخالد ﷺ؛ الإيمان الصادق والحب الشديد والصحبة الدائمة للحبيب المصطفى ﷺ.

فقد انتقل مولانا رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، ولم يكن لدى أصحابه الكرام ﷺ من العلوم والمعارف والمخترعات والأسلحة المتطورة ما يلاقون به أعداءهم ،بل كان زادهم هذه المحبة والصحبة وما استطاعوا إعداده من قوة؛ فكانوا صفا مرصوصا وبناء شامخا يشد بعضه بعضا.

وجل المسلمين اليوم لديهم فكرة مخطئة حول هذا الجيل ،يظنون أن هذه الفضائل والخيرات وصلت إليهم ثم انتهت ،ولن يعود هذا الخير مرة أخرى وهذا خطأ ،إن الصحابة ﷺ فازوا بالصحبة المباشرة لسيدنا رسول الله ﷺ، لكن بقي السباق إلى رضوان الله ﷻ، ومحبة الحبيب الأكرم والمصحوب الأعظم ﷺ، قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة]، ألحق بالمهاجرين والأنصار من سلك نهجهم واقتفى أثرهم من أمة سيدنا محمد ﷺ إلى آخر الزمان.

صحيح أن لهذه الجبال الشامخة مكانتها وفضل السبق؛ إذ هي كالنجوم يقتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر، لكن بقي المنهاج المحمدي الذي تركه لنا الحبيب المصطفى والنبي المجتبى ﷺ، والذي إن تمسكنا به وسلكنا مسلكه لن نضل أبدا.

لقد ربى النبي ﷺ رجالا رحماء بينهم، تحابوا في الله، وتوالوا فيه، وسمعوا، وأطاعوا، واستجابوا لربهم، وتشاوروا في الأمر، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وبايعوا، وآووا ونصروا، فكان العشرون منهم يغلبون مائتين من سواهم، كانوا رجالا صنعتهم التربية المحمدية النبوية، ومحصهم الله بالابتلاء والخطوب والشدائد والأذى، فبذلوا الغالي والنفيس لإرضاء ربهم، ونصر نبيهم ﷺ، والدفاع عن دين الإسلام، حتى حرروا العالم من قبضة الكفر، ونشروا الإسلام والسلام في ربوع الأرض.

وإن أدل ما يدل على تلك التربية النبوية لأولئك الرجال، ولسنة الله في المحبة والطاعة ساحة المعارك التي بيَّن فيها أولئك الرجال شدة حبهم لنبيهم، وتمسكهم بغرزه:

– **سرية عبد الله بن جحش** ﷺ؛ في هذه السرية بعث النبي ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب مقفله من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا.

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعا وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشا، حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم. فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد[1].

وفي هذه السرية الكثير من العبر والدروس؛ نستنبط منها درسا بليغا، ذلك الحب الشديد الذي جعل أولئك الرجال يمضون في سبيلهم ولا يخافون في الله لومة لائم؛ استماتة في الدفاع عن دينهم، وحبا لنبيهم ﷺ وللشهادة في سبيل الله.

– **غزوة بدر الكبرى**: هذه الغزوة تبهرنا دروسها وعبرها، ويبهرنا عطاؤها وهي تمد الحياة بدروس باهرة في وحدة الصف وفي محبة الجند لقائدهم، وفي محبة المؤمنين لحبيبهم وشفيعهم ﷺ حتى إنه ﷺ وهو يوحد الصفوف وينظمها ليجعلها كالبنيان المرصوص.

إنه الحب الصادق للنبي المصطفى ﷺ، إنه الإيمان الأكيد الذي ربط هذه القلوب المؤمنة، إنه الإيمان الصادق والحب الأكيد والإنابة والصلة القوية بالله تعالى التي كانت من أكبر الأسباب ليجري الله تعالى لهم الخوارق في هذه الغزوة.

---

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 449. البداية والنهاية، 2/ 254. تاريخ الإسلام، الملجد الأول (المغازي)، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي،1/ 29-30.

لنذكر بعض الأحداث التي تظهر فيها سنة المحبة جلية واضحة، قال الإمام ابن إسحاق –رحمه الله: "وحدثني حبان بن واسع بن حبان عن أشياخ من قومه أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح يعدل به القوم فمر بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ حَلِيفِ بَنِي عَدِيّ بْنِ النّجّارِ (...) وهو مستنتل من الصف – قال ابن هشام : ويقال مستنصل من الصف – فطعن في بطنه بالقدح، وقال: «استو يا سواد»؛ فقال يا رسول الله: أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل قال: «فأقدني». فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال «استقد» قال فاعتنقه فقبل بطنه فقال: «ما حملك على هذا يا سواد؟» قال يا رسول الله حضر ما ترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرا"[1].

ثم حرض النبي ﷺ أصحابه على القتال، وقال: "والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة". فَقَالَ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَام رضي الله عنه: وَفِي يَدِهِ تَمَرَاتٍ يَأْكُلُهُنّ، بَخْ بَخْ أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وقال عَوْفَ بْنَ الْحَارِث: وَهُوَ ابْنُ عَفْرَاءَ قَالَ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا يُضْحِكُ الرّبّ مِنْ عَبْدِه؟ قَالَ: "غَمْسُهُ يَدَهُ فِي الْعَدُوّ حَاسِرًا". فَنَزَعَ دِرْعًا كَانَتْ عَلَيْهِ فَقَذَفَهَا، ثُمّ أَخَذَ سَيْفَهُ فَقَاتَلَ الْقَوْمَ حَتّى قُتِل"[2].

– **غزوة أحد**: قاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدا. فلما قتل مصعب بن عمير أعطى رسول الله ﷺ اللواء علي بن أبي طالب، وقاتل علي بن أبي طالب ورجال من المسلمين[3].

وقاتل سيدنا حنظلة بن أبي عامر الراهب رضي الله عنه وكان قد تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، فأدخلت في الليلة التي في صبيحتها كان قتال أُحُد، وكان قد استأذن رسول

(1) سيرة ابن هشام، 2/ 466.
(2) سيرة ابن هشام، 2/ 467. طبقات ابن سعد، 2/ 25.
(3) سيرة ابن هشام، 3/ 29.

الله ﷺ أن يبيت عندها، فأذن له، فلما صلى الصبح غدا يريد رسول الله ﷺ بأُحُد، ثم مال إلى جميلة فأجنب منها. وكانت قد أرسلت إلى أربعة من قومها، فأشهدتهم أنه دخل بها. فقيل لها في ذلك فقالت: رأيت كأن السماء قد فرجت له فدخل فيها، ثم أطبقت فقلت هذه الشهادة. وعلقت بعبد الله بن حنظلة.

وأخذ حنظلة سلاحه، فلحق بالنبي ﷺ وهو يسوي الصفوف، فلما انكشف المسلمون[1] التقى غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه وزعيم قريش أبو سفيان، فلما استعلاه حنظلة بن أبي عامر رآه شداد بن الأسود، وهو ابن شعوب قد علا أبا سفيان. فضربه شداد فقتله. فقال رسول الله ﷺ: "إن صاحبكم -يعني حنظلة- لتغسله الملائكة. فاسألوا أهله ما شأنه؟" فسئلت صاحبته عنه. فقالت: خرج وهو جنب حين سمع الهاتفة.

فقال رسول الله ﷺ: لذلك غسلته الملائكة[2].

واشتد وطيس المعركة وانتصر المسلمون وصدقهم الله وعده، وولى المشركون الأدبار، فنزل الرماة من الجبل وخالفوا أمر نبيهم ﷺ، فكانت الهزيمة، فقتل من قتل وجرح من جرح، حتى صلى النبي ﷺ قاعدا من شدة الجراح التي أصابته صلوات ربي وسلامه عليه، وأشاع المشركون بأن رسول الله ﷺ قد قتل، ليوهنوا عزائم المؤمنين، ويخففوا من معنوياتهم، مما يسبب لهم الفشل ويخسروا المعركة.

وهذا سيدنا أنس بن النضر بن ضمضم رضي الله عنه يجيش صدره حبا وشوقا في سبيل الله ومحبة سيدنا رسول الله ﷺ؛ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ عَمَّهُ غَابَ عَنْ بَدْرٍ فَقَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ للنبي ﷺ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللَّهُ مَعَ النبي ﷺ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أُجِدُّ. فلقي يَوْمَ أُحُدٍ، فَهُزِمَ النَّاسُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاَءِ، -يَعْنِي الْمُسْلِمِينَ - وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ. فَتَقَدَّمَ بِسَيْفِهِ فلقي سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ فَقَالَ: أَيْنَ يَا سَعْدُ إِنِي أَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ دُونَ أُحُدٍ. فَمَضَى

(1) صفة الصفوة، 1/ 235.

(2) سيرة ابن هشام، 3/ 29. سيرة ابن إسحاق، ص312. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص105- 106. تاريخ الطبري، 2/ 82.

فَقُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِشَامَةٍ أَوْ بِبَنَانِهِ، وَبِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ مِنْ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ"[1].

ولما فُقِدَ سيدنا رسول الله ﷺ وشاع الخبر بمقتله؛ قال رجل من الصحابة: "إن رسول الله قد قتل، فارجعوا إلى قومكم فيؤمنوكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم، فإنهم داخلوا البيوت. قال: وقال رجل منهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا. وقال آخرون: إن كان رسول الله ﷺ قد قتل أفلا تقاتلون على دينكم وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله عز وجل شهداء؟ منهم [أنس بن النضر]، شهد له بها سعد بن معاذ عند رسول الله ﷺ"[2].

فبينا رسول الله ﷺ بالشعب ومعه نفر من أصحابه، إذ علت عالية من قريش الجبل. فقال رسول الله ﷺ:"اللهم إنه لا ينبغي لهم أن يعلونا"، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل. ونهض رسول الله ﷺ إلى صخرة من الجبل ليعلوها، وقد كان بَدَّن رسول الله ﷺ، وظاهر بين درعين، فلما ذهب لينهض ﷺ لم يستطع، فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها. فقال رسول الله ﷺ: "أوجب طلحة" حين صنع برسول الله ﷺ ما صنع[3].

وبعد انتهاء المعركة فرغ الناس لقتلاهم، فتفقد سيدنا رسول الله ﷺ سعد بن الربيع ﷺ الذي ملأت محبة رسول الله ﷺ شغاف قلبه، ولم يبال بما أصابه من جراح وهو يحتضر إلا شوقه إلى حبيبه ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:""مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لِي مَا فَعَلَ سَعْدُ بْنُ الرّبيعِ؟ أَفِي الْأَحْيَاءِ هُوَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟" فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: أَنَا أَنْظُرُ لَك يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فَعَلَ سَعْدٌ، فنظر فوجده جريحا في القتلى وَبِهِ رَمَقٌ. قَالَ: فَقُلْت لَهُ: إنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَمَرَنِي أَنْ أَنْظُرَ أَفِي الْأَحْيَاءِ أَنْتَ أَمْ فِي الْأَمْوَاتِ؟ قَالَ: أَنَا فِي الْأَمْوَاتِ، فَأَبْلِغْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِّي السّلَامَ؛ وَقُلْ لَهُ: إنّ سَعْدَ بْنَ الرّبيعِ يَقُولُ لَك: جَزَاك اللّهُ عَنّا خَيْرَ مَا جَزَى نَبِيّا عَنْ أُمّتِهِ. وَأَبْلِغْ قَوْمَك عَنّي السّلَامَ؛ وَقُلْ لَهُمْ: إنّ سَعْدَ بْنَ الرّبيعِ يَقُولُ لَكُمْ: **إنّهُ لَا عُذْرَ لَكُمْ عِنْدَ اللّهِ**

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة أحد، ح4048. صفة الصفوة، 1/ 240.

(2) عيون الأثر، (تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة)، 2/ 19. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص106.

(3) سيرة ابن هشام، 3/ 40.

إِنْ خَلُصَ إِلَيَّ نَبِيّكُمْ ﷺ وَمِنْكُمْ عَينٌ تَطْرِفُ. قَالَ: ثُمّ لَمْ أَبْرَحْ حَتّى مَاتَ، قَالَ: فَجِئْتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ فَأَخْبَرْته خَبَرَهُ"[1].

إنه سيدنا سعد بن الربيع ﷺ الذي يحذر إخوانه من الأنصار من أن يتمكن أحد من حبيبه الله ﷺ. وبعد ذلك عرجت روحه إلى ربها. فنلحظ إلى ما ختم به سيدنا الربيع ﷺ حياته حين أثخنته الحرب: نسي ما حل به من آلام وجراح ودماء، وانتهز الفرصة للتعبير عن حبه الشديد لحبيبه وتحذير إخوانه من أن تصل يد عدو إلى حبيبه، انتهز بقية الحياة يتذوق حلاوة ذكر المحبوب يفارق بها الحياة الفانية لينتقل إلى الحياة الخالدة حيث لقاء بلا فراق، ووصال واجتماع. وهكذا كان لتلك الكلمات التي تلفظها أثرها القوي في قلوب المسلمين، كما وجه من خلالها رسالة لأولئك الذين أثخنوه جراحا ما صنعوا فيه، إنهم رفعوه مقاما عليا وقربوه من لقاء حبيبه، وحققوا له أمنيته، وأنه ذاهب إلى الجنة حيث المحبوب الأعظم، وتلك هي الغاية العظمى التي يرجوها كل محب ومن أجلها يبذل الغالي والنفيس.

أما سيدنا عمرو بن الجموح فإنه اشتاق إلى حبيبه فاشتاق إليه، قال الواقدي –رحمه الله–:»وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج فلما كان يوم أُحُد– وكان له بنون أربعة يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد أمثال الأسد– أراد بنوه أن يحبسوه وقالوا: أنت رجل أعرج ولا حرج عليك، وقد ذهب بنوك مع النبي ﷺ.

قال: بخ يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم؛ فقالت هند بنت عمرو بن حرام امرأته كأني أنظر إليه موليا، قد أخذ درقته[2] يقول: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيا فخرج ولحقه بنوه يكلمونه في القعود فأتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة. فقال رسول الله ﷺ: "أما أنت فقد عذرك الله تعالى ولا جهاد عليك". (فأبى) فقال النبي ﷺ لبنيه: "لا عليكم أن تمنعوه لعل الله يرزقه الشهادة". فخلوا عنه فقتل يومئذ شهيدا.

(1) سيرة ابن هشام، 3/ 49. الموطأ لمالك بن أنس، كتاب الجهاد، باب الترغيب في الجهاد، ح1013. سيرة ابن إسحاق، ص313. تاريخ الطبري، 2/ 85.

(2) الدَّرَقُ: ضرب من التِّرَسة الواحدة دَرَقة؛ تتخذ من الجلود غيره الدرقة الحَجَفة وهي تُرْس من جلود ليس فيه خشب ولا عَقَب والجمع دَرَقٌ وأَدراق ودِراقٌ. لسان العرب، مادة: درق.

فقال أبو طلحة: نظرت إلى عمرو بن الجموح حين انكشف المسلمون ثم ثابوا وهو في الرعيل الأول لكأني أنظر إلى ضلعه في رجله يقول: أنا والله مشتاق إلى الجنة ثم أنظر إلى ابنه يعدو في أثره حتى قتلا جميعا.

وكانت عائشة زوج النبي ﷺ خرجت في نسوة تستروح الخبر -ولم يضرب الحجاب يومئذ-، حتى إذا كانت بمنقطع الحرة وهي هابطة من بني حارثة إلى الوادي لقيت هند بنت عمرو بن حرام أخت عبد الله بن عمرو بن حرام تسوق بعيرا لها، عليه زوجها عمرو بن الجموح، وابنها خلاد بن عمرو، وأخوها عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ﷺ.

فقالت عائشة: عندك الخبر، فما وراءك؟ فقالت هند: خيرا، أما رسول الله فصالح وكل مصيبة بعده جلل.

قالت: من هؤلاء؟ قالت أخي، وابني خلاد وزوجي عمرو بن الجموح. قالت: فأين تذهبين بهم؟ قالت: إلى المدينة أقبرهم فيها... تزجر بعيرها، ثم برك بعيرها فقلت: لما عليه قالت ما ذاك به لربما حمل ما يحمل البعيران ولكني أراه لغير ذلك. فزجرته فقام فلما وجهت به إلى المدينة برك فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع. فرجعت إلى النبي ﷺ فأخبرته بذلك فقال رسول الله ﷺ:" فإن الجمل مأمور هل قال شيئا؟" قالت: إن عمرا لما وجه إلى أحد استقبل القبلة وقال: اللهم لا تردني إلى أهلي خزيا وارزقني الشهادة.

قال رسول الله ﷺ:" فلذلك الجمل لا يمضي إن منكم يا معشر الأنصار من لو أقسم على الله لأبره منهم عمرو بن الجموح. يا هند، ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قتل إلى الساعة ينظرون أين يدفن". ثم مكث رسول الله ﷺ حتى قبرهم ثم قال:" يا هند، قد ترافقوا في الجنة جميعا، عمرو بن الجموح، وابنك خلاد وأخوك عبد الله". قالت هند: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم"[1].

وهذا سيدنا سعد بن أبي وقاص ﷺ قال له سيدنا عبد الله بن جحش ﷺ يوم أُحُد: "ألا تأتي ندعو الله؛ فخلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيت العدو غدا فلقني

(1) مغازي الواقدي، 1/ 265 وما بعدها.

رجلا شديدا بأسه، شديدا حَردُه[1]، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم ارزقني عليه الظفر حتى أقتله وآخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش ثم قال: اللهم ارزقني غدا رجلا شديدا بأسه، شديدا حرده، أقاتله فيك ويقاتلني فيقتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني.

فإذا لقيتك قلت يا عبد الله: فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول فيك، وفي رسولك، فيقول الله: صدقت قال سعد: كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أذنه وأنفه معلقان في خيط"[2].

أما أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنها فقد قاتلت ببسالة يوم أحد. "ذكر سعيد بن أبي زيد الأنصاري: أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبريني خبرك؛ فقالت خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس ومعي سقاء فيه ماء فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو في أصحابه والدولة والريح للمسلمين. فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إلي. قالت: فرأيت على عاتقها جرحا أجوف له غور[3]، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة أقمأه الله لما ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول دلوني على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان"[4].

وهذا سيدنا أبو طلحة الأنصاري ﷺ في غزة أحد يفدي رسول الله ﷺ بنفسه، فعن سيدنا أنس بن مالك ﷺ: " أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي النبي ﷺ يوم أُحُد والنبي ﷺ خلفه يترس به. وكان راميا، فكان إذا ما رفع رأسه ينظر أين وقع سهمه، فيرفع أبو طلحة رأسه ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك. وكان

(1) حرده: والحَرْدُ المنع والحَرْدُ الغيظ والغضب. لسان العرب، مادة: حرد.
(2) عيون الأثر (تحقيق: الخضراوي ومتو)، 2/ 32.
(3) غور: عمق، وغَوْرُ كلِّ شيء قَعْرُه وعمقه. لسان العرب، مادة: غور.
(4) سيرة ابن هشام، 3/ 36-37.

أبو طلحة يشور نفسه[1] بين يدي رسول الله ﷺ، ويقول: إني جلد يا رسول الله فوجهني في حوائجك ومرني بما شئت"[2].

- **يوم الرجيع** [3]: قَالَ ابن إسحاق:" قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللّهِ ﷺ بَعْدَ أُحُدٍ رَهْطٌ مِنْ عَضَلٍ وَالْقَارّةِ[4].

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ إنّ فِينَا إسْلَامًا، فَابْعَثْ مَعَنَا نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِك يُفَقّهُونَنَا فِي الدّينِ وَيُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ وَيُعَلّمُونَنَا شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ. فَبَعَثَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ نَفَرًا سِتّةً مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُمْ: مَرْثَدُ بْنُ أَبِي مَرْثَدٍ الْغَنَوِيّ، وَخَالِدُ بْنُ الْبُكَيْرِ اللّيْثِيّ، وَعَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَقْلَحِ، وَخُبَيْبُ بْنُ عَدِيّ، وَزَيْدُ بْنُ الدّثِنّةِ بْنِ مُعَاوِيَةَ، وَعَبْدُ اللّهِ بْنُ طَارِقٍ.

وأمر رسول الله ﷺ على القوم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، فخرج حتى إذا كانوا على الرجيع ، ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدور الهدأة[5] غدروا بهم فاستصرخوا عليهم هذيلا، فلم يرع القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف قد غشوهم فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم.

فأما مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا، ثم قاتل القوم حتى قتل وقتل صاحباه.

(1) يشور نفسه: أَي يعرضُها على القَتْل والقَتْل في سبيل الله بَيْع النفس وقيل يَشُور نفسه أَي يَسْعى ويَخِفُّ يُظهر بذلك قوَّته. لسان العرب، مادة: شور.

(2) طبقات ابن سعد، 3/ 504 وما بعدها.

(3) اختلف أهل السير في تاريخ هذه السرية؛ فابن إسحاق يقول بأنها كانت في السنة الثالثة للهجرة بعد غزوة أُحُد، انطلاقا من رواية مرسلة عن شيخه عاصم. وابن سعد يقول بأنها كانت في شهر صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة؛ أي في بداية السنة الرابعة. ومنهم من حددها بمنتصف شهر صفر آخر السنة الثالثة. طبقات ابن سعد، 2/ 55. الدرر في اختصار المغازي والسير، ص113. جوامع السيرة، ص106. سيرة ابن هشام، 3/ 115. عيون الأثر)ت: الخطراوي ومتو(، 2/ 62.

(4) عضل والقارة: عَضَل: بطن من بطون بني الأهول بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ينسبون إلى عضل بن الديش بن محكم، وأما القارة: بطن من الهول أيضا ينسبون إلى الديش المذكور، وقال ابن دريد: القارة أكمة سوداء فيها حجارة كأنهم نزلوا عندها فسموا بها. فتح الباري، 7/ 435.

(5) الهدأةُ: موضع بين عسُفان ومكة. معجم البلدان، باب الهاء والراء وما يليهما، حرف:الهاء.

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقوا ورغبوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا إلى مكة ، ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه القوم فرموه بالحجارة حتى قتلوه فقبره –رحمه الله– بالظهران، وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة. فباعوها من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة.

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم[1]، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه. واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا؛ ثم قتله نسطاس يرحمه الله. ثم خرجوا بخبيب حتى إذا جاؤوا به إلى التنعيم ليصلبوه قال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا؛ قالوا: دونك فاركع. فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة، قال: فكان خبيب بن عدي أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين. قال: ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال: اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يصنع بنا؛ ثم قال: اللهم أحصهم عددا، واقتلهم بددا، ولا تغادر منهم أحدا . ثم قتلوه رحمه الله"[2].

ثم أنشأ يقول:

فلست أُبالي حين أقتل مسلما على أي جنب كان لله مصرعي

(1) التَّنْعِيم: موضع بمكة في الحل وهو بين مكة وسرِفَ على فرسخين من مكة وقيل: على أربعة وسمي بذلك لأن جبلاً عن يمينه يقال له: نعيم وآخر عنَ شماله يقال له ناعم والوادي نعمان. معجم البلدان، باب التاء والنون وما يليهما، حرف:التاء.

(2) سيرة ابن هشام، 3/ 115–118، باختصار.

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلْو ممزع"[1]

وعند الواقدي –رحمه الله–:"ثم قال:اللهم إني لا أرى إلا وجه عدو، اللهم إنه ليس هاهنا أحدٌ يبلغ رسولك عني، فبلغه عني السلام!

عن أسامة بن زيد، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ كان جالسا مع أصحابه، فأخذته غَمْيَةٌ كما كان يأخذه إذا أنزل عليه الوحي. قال: سمعناه يقول: "وعليه السلام ورحمة الله"؛ ثم قال: "هذا جبريل يُقرئني من خبيب السلام""[2].

– **غزوة حنين**: نجد صورا رائعة لذلك الحب الشديد لحضرة النبي ﷺ الذي ملك قلوب أولئك الرجال الذين باعوا أنفسهم وأرواحهم لله تعالى؛ فهذه مولاتنا أم سليم بنت ملحان رضي الله عنها، التقت النبي ﷺ فرآها وكانت مع زوجها أبي طلحة وهي حازمة وسطها ببرد لها، وإنها لحامل بعبد الله بن أبي طلحة ومعها جمل أبي طلحة، وقد خشيت أن يعزها الجمل، فأدنت رأسه منها، فأدخلت يدها في خزامته[3] مع الخطام، فقال لها رسول الله ﷺ: "أم سليم؟" قلت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله، اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل؛ فقال رسول الله ﷺ: "أو يكفي الله يا أم سليم؟" قال: ومعها خنجر، فقال لها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم؟ قالت: خنجر أخذته، إن دنا مني أحد من المشركين بعجته[4] به قال: يقول أبو طلحة: ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء"[5].

– **سرية مؤتة (جيش الأمراء)**: بعث سيدنا رسول الله ﷺ، "الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهب إلى ملك بصرى بكتاب، فلما نزل مؤتة عرض له شرحبيل بن عمرو الغساني

(1) مغازي ابن عقبة، ص202.
(2) كتاب المغازي للواقدي (تحقيق: مارسْدن جُونس)، 1/ 360–361.
(3) خزامته: خَزَمَ الشيءَ يَخْزِمُهُ خَزْماً شَكَّهُ والخِزامَةُ بُرَةٌ حَلَقَةٌ تجعل في أَحد جانِبَيْ مَنْخِرَي البعير وقيل هي حَلقةٌ من شَعَرٍ تجعلَ في وَتَرَةِ أَنفه يُشَدُّ بها الزِّمامُ. لسان العرب، مادة: خزم.
(4) بعجته: أي أَشُقُّه، وهو من :بَعَجَ بَطْنَه بالسكين يَبْعَجُه بَعْجاً فهو مَبْعُوجٌ وبَعِيجٌ وبَعَّجه شَقَّهُ فزال ما فيه من موضعه وبدا متعلقاً. لسان العرب، مادة: بعج.
(5) سيرة ابن هشام، 4/ 346.

فقتله ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره، فاشتد ذلك عليه وندب الناس فأسرعوا وعسكروا بالجرف[1]. وهم ثلاثة آلاف، فقال رسول الله ﷺ: "أمير الناس زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبد الله بن رواحة، فإن قتل فليرتض المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم". وعقد لهم رسول الله ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة وأوصاهم رسول الله ﷺ أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا من هناك إلى الإسلام فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم، وخرج مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع[2] فوقف وودعهم، فلما ساروا من معسكرهم نادى المسلمون: دفع الله عنكم وردكم صالحين غانمين![3].

فلما مضوا إلى مؤتة وغادروا المدينة سمع العدو بمسيرهم، فجمعوا لهم وقام فيهم شرحبيل بن عمرو فجمع أكثر من مائة ألف وقدم الطلائع أمامه[4].

فلما سمع المسلمون بذلك العدد الكبير، فأقاموا ليلتين ليفكروا في أمرهم وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

فشجع الناس عبد الله بن رواحة؛ وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون، للتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة. فقال الناس: قد والله صدق ابن رواحة[5].

فمضى المسلمون إلى مؤتة ووافاهم المشركون فجاء منهم ما لا قبل لأحد به من العدد والسلاح والكراع[6] والديباج والحرير والذهب، فالتقى المسلمون والمشركون فقاتل

(1) الجُرف: يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة المنورة على الجزء الذي يلي وادي العقيق، وهو الآن حي من أحياء المدينة. تاريخ المدينة المنورة، ص77.

(2) ثنية الوداع: عن يمين المدينة أحسب أنه كان الخارج من المدينة يودعه المشيع من هناك. الروض المعطار، حرف الثاء، ص151.

(3) طبقات ابن سعد، 2/ 128.

(4) طبقات ابن سعد، 2/ 129.

(5) سيرة ابن هشام، 4/ 289.

(6) الكراع: قد يستعمل للإبل. لسان العرب، مادة: كرع.

الأمراء يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل، وقاتل المسلمون معه على صفوفهم، حتى قتل طعنا بالرماح رحمه الله، ثم أخذ اللواء جعفر الطيار ابن أبي طالب ﷺ فنزل عن فرس له شقراء فعرقبها فكانت أول فرس عرقبت في الإسلام وقاتل حتى قتل ﷺ، ضربه رجل من الروم فقطعه بنصفين، فوجد في أحد نصفيه بضعة وثلاثون جرحا ووجد فيما قيل من بدن جعفر اثنتان وسبعون ضربة بسيف وطعنة برمح، ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة فقاتل حتى قتل رحمه الله، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد فأخذ اللواء وانكشف الناس فكانت الهزيمة، فتبعهم المشركون فقتل من قتل من المسلمين ورفعت الأرض لرسول الله ﷺ، حتى نظر إلى معترك القوم. فلما أخذ خالد بن الوليد اللواء قال رسول الله ﷺ: "الآن حمي الوطيس! " فلما سمع أهل المدينة بجيش مؤتة قادمين تلقوهم بالجرف، فجعل الناس يحثون في وجوههم التراب ويقولون: يا فرار! أفررتم في سبيل الله؟ فيقول رسول الله ﷺ: "ليسوا بفرار ولكنهم كرار إن شاء الله!"»[1].

ولما أصيب حب رسول الله ﷺ سيدنا زيد بن حارثة أتى النبي ﷺ بيت زيد "فجهشت بنت زيد في وجه رسول الله ﷺ، فبكى رسول الله ﷺ حتى انتحب فقال له سعد بن عبادة: يا رسول الله ما هذا؟ قال: "هذا شوق الحبيب إلى حبيبه""[2].

إنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وباعوا أنفسهم وأرواحهم لله تعالى، وطلقوا الدنيا طلاقا بائنا، وسارعوا إلى جنات عرضها السموات والأرض.

وعلى ضوء ما سبق ذكره من القصص الرائعة والمواقف الخالدة والدرر الغالية في تاج التاريخ الإسلامي يتبين لنا مدى ذلك الحب الشديد الذي ملأ شغاف قلوب الصحابة ﷺ، ذلك الحب الذي لا تزلزله الشدائد، ولا تزعزعه الصعاب والخطوب، وهكذا نراهم ﷺ في أحلك اللحظات حرجا يفدون حبيبهم ﷺ بأرواحهم أن تصيبه شوكة آمنا في بيته، وهم في اللحظة الأخيرة بين أعدائهم ينتظرون الموت، فما أخلصه من بذل، وما أعظمه حبًّا حير أعداءهم وأدهشهم، لما رأوا ذلك التفاني في الحب الشريف.

---

(1) طبقات ابن سعد، 2/ 129.

(2) طبقات ابن سعد، 3/ 47.

هذا إضافة إلى الجهاد المتواصل والعمل الدائب من أجل رفع راية الإسلام، وتبليغ كلمته في العالمين، فخرج الصحابة ﷺ في الغزوات والسرايا والبعوث، واستجابوا لربهم الذي ناداهم وحضهم وحثهم على القتال في سبيله؛ فكانت هناك معارك تلو المعارك، ونشاط متدفق من السرايا والبعوث.

إنها المحبة التي تصنع العجائب، وتدفع صاحبها إلى التعالي فوق الذات، إنها روحانية عالية حولت أولئك الرجال من رعاة إلى قادة للعالم، وأخرجتهم من ظلمات الجاهلية إلى أنوار الإيمان.

مسك الختام

(نسأل الله حسن الخاتمة)

لقد تحقَّقت السِّيادةُ والرِّيادةُ للجيل الأوَّل عندما صَدَقَ وأخلص في الاقتداء والتَّأسِّي والمتابعة لرَّسول الله ﷺ؛ فتمكَّن من التَّطبيق الواقعيّ لنصوص القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، ولابُدَّ لاستئناف الحياة الإسلاميَّة الصَّحيحة من جديد من تمثُّل السِّيرة النَّبويَّة في الواقع المعاش على مختلف المستويات (السياسية، والاقتصادية، والتربوية، والتعليمة، والاجتماعية..)، وفي المظهر والمخبر، وفي كل المواقع والنَّواحي، وأن تكون دراستُنا للسِّيرة النَّبويَّة بهذه المعاني العميقة والنَّظرة الشَّاملة، والفقه الواعي؛ حتى نكون بحق خير أمة أخرجت للناس.

وكيف لا يتخذ المسلمون الحبيب المصطفى ﷺ أسوة وقدوة في حياتهم، ومثلهم الأعلى في كل شيء، وكيف وقد وضع في شخصه العظيم ﷺ الصورة الكاملة للمنهاج الإسلامي، والصورة الحية الخالدة على مدار التاريخ.. رجل سياسة يشيد أمة من الفتات المتناثرة، فإذا هي بناء ضخم لا يطاوله شيء في التاريخ ويمنح هذا البناء من وقته وفكره وجهده ما يشغل وجود حياة كاملة، ورجل حرب يضع الخطط ويقود الجيوش ويحارب وينتصر كقائد متخصص كل همه القتال، متفرغا له.. وأب وزوج ورب أسرة كبيرة.. وصديق وقريب وصاحب للناس تشغله همومهم وتملأ نفسه مشاعرهم، ويقودهم ويزورهم ويمنحهم من مودته وعطفه ما يشغل رجلا إنساني القلب، يهب حياته كلها لشئون الناس.. وعابد متحنث لربه مرجل منقطع للعبادة، متخصص لأدائها لا تصله بالأرض رابطة ولا يشغله هم من الهموم ولا تجيش في نفسه نوازع ولا تتحرك في نفسه رغبات.

فما كان للسيرة العطرة المنهاج التربوي الكامل الغني بأساليب البناء المتين والتنشئة الصحيحة الصالحة أن تختزل في سرد المعلومات وينتهي الأمر بنتيجة جمع معلومات متناثرة لا يربطها مفهوم أو تجمع بينها مبادئ مشتركة.

ولا يتحقق المنهاج الصحيح في دراسة السيرة النبوية العطرة إلا إن من خلال مفهوم القدوة الحسنة وانطلاقا من قوله جل وعلا: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

ومجمل القول: فبالتولي شطر السيرة النبوية دراسة وتطبيقا واقتداء ومنهاجا في الحياة يحقق المسلمون ما تعجز عن تحقيقه الأمم الراكضة وراء سراب الشهوات الفانية، والملذات الزائلة، والمطامع النفسية.

فالسيرة النبوية تجربة غنية فيها من الدروس والعبر ما لا يعد ولا يحصى، فهي زاخرة بدلالاتها، متنوعة بمعطياتها، ومهمة بوقائعها؛ إذ هي عطاء مفتوح بابه على مصراعيه لكل زمان ومكان، خالدة بقيمها وسنن الله فيها، إنها كنز الدروس والعبر، ومدخر القيم التي تنبض بالنور، تهدي للتي هي أقوم، وترشد إلى الطريق السوي، وتضع معالم النجاة أمام الناس وترسم لهم طريق الله المستقيم...

وصدق الله: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام].

وصل اللهم وسلم على بدر التمام مصباح الظلام سيدنا وحبيبنا محمد خير الأنام وعلى آله وصحبه البررة الكرام.

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
إهداء	5
تقديم	7
المحور الأول: مدخل لدراسة السيرة النبوية العطرة	9
1 – السيرة لغة واصطلاحا	9
2 – مقاصد دراسة السيرة النبوية	10
3 – مميزات السيرة النبوية	21
4 – أنواع التأليف في السيرة النبوية	27
5 – مصادر السيرة النبوية	31
6 – مراحل تدوين السيرة النبوية الشريفة	38
7 – أقسام السِّيرة النَّبويَّة	39
8 – مولد الإنسانية	40
المحور الثاني: منهاج النبي ﷺ في التدرج في الدعوة	46
1 – سرية الدعوة	46
2 – الدعوة جهرا	49
3 – البحث عن قاعدة حرة للدعوة	52
4 – البحث عن سند اجتماعي للدعوة	55
5 – الهجرة إلى المدينة وبناء كيان يحمي الدعوة وأتباعها	58
المحور الثالث: منهاج النبي ﷺ في تغيير ما بالأنفس	59
1 – صحبة النبي ﷺ ومحبته	60
2 – الروح الجماعية	63
3 – الإيمان الصحيح	64
4 – الصدق في القول والعمل	68
5 – السخاء والعطاء	69
6 – ربط العلم النافع بالعمل الصالح	72
7 – الصبر وتحمل الأذى	78

8 – تجديد القصد والكفاية المادية: 82
9 – الجهاد في سبيل الله: 84
المحور الرابع: منهاج النبي ﷺ في الدفاع عن الدين والأمة 90
1 – فرض القتال على المسلمين: 90
2 – أهداف الغزوات والسرايا النبوية: 99
المحور الخامس: محبة الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ
(مواقف خالدة في الغزوات والسرايا) 105
مسك الختام 125

إصدارات حديثة للمؤلف

الأستاذ الدكتور/ أبو اليسر رشيد كهوس

الأستاذ بكلية أصول الدين بتطوان ـ جامعة القرويين

- **نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية:**
  سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ.
- **سنة الله في اليهود ومستقبل الأمة الموعود.**
- **إتحاف العباد بحقيقة الجهاد.**
- **العبر من سيرة خير البشر ﷺ.**
- **مختصر تواريخ الأحداث المشهورة في السيرة النبوية.**
- **التنشئة الإسلامية للطفل.**
- **مستقبل الأمة المسلمة.**
- **محاضرات في سيرة الخلفاء الراشدين.**